٢١

مجلة
روايات أحلام

أطياف الرغبة

www.elromancia.com

مرمودية

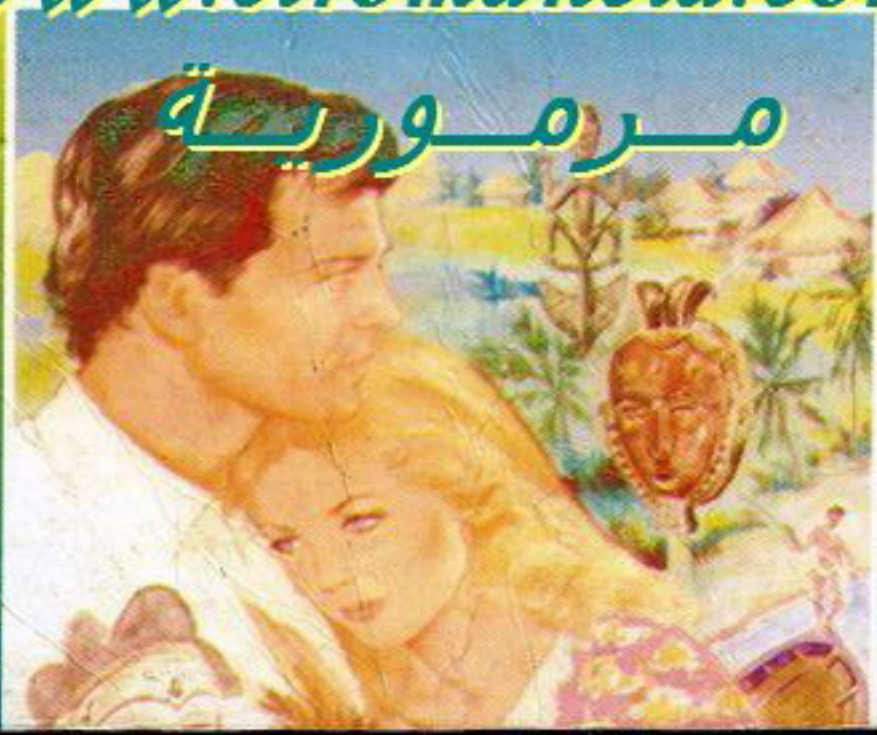

مجلة روايات أحلام

www.elromancia.com

أطياف الرغبة

«نظر إليها، والغضب الأسود على وجهه، ثم قال:

- ستبقين سجينتي حتى أعثر على شقيقك وخطيبتي، وحتى ذلك الوقت، عليك أن تسلّيني».

عادت ديانا بذاكرتها إلى بداية الكابوس. كانت مهمتها تبدو لها سهلة فكل ما كان عليها فعله هو توصيل رسالة إلى شخص في مراكش ثم العودة.

لكن مع شخص قاس راغب في الانتقام مثل سيمون سان كلير، أصبح كل شيء ينذر بالخطر. فديانا دخلت الفخ بنفسها، ولا يبدو أنها تستطيع الخلاص ولو اقتنع ببراءتها.

١ ـ بانتظار السيد

فتحت ديانا واتيني عينيها الصغيرتين على فجيعة موت والديها اللذين تركا لها ثروة صغيرة تمكنها من الاستمرار في العيش والتعلم في دير تهتم بأموره السيدة واتيني التي لا تمت لها بصلة قرابة لكن ما ربط بينهما أن السيدة واتيني لها ابنة تحمل نفس الاسم ديانا واتيني، تكبر ديانا الأولى بعشر سنوات، تعلمت في نفس الدير، لكنها تركت تحصيلها العلمي قبل دخول ديانا الأخيرة الدير بقليل، إذ لم يتم التعارف بين الفتاتين الحاملتين نفس الاسم. والدافع أن السيدة واتيني عانت الكثير بعد أن خذلتها ابنتها الوحيدة بزواجها ممن تحب، ورغماً عنها، مقسمة على عدم العودة إلى أحضان والدتها. مما دفع السيدة واتيني لابداء رغبة شديدة في تربية ديانا وطلبت من رئيسة الدير السماح لها بضمها لتعيش في كنفها وبين أحضانها.

وتحدثت رئيسة الدير إلى ديانا شارحة لها الأمر قبل أن تسمح لها بأن تقرر ما تريد:

ـ منذ أن اكتشفت السيدة واتيني أنك تحملين نفس اسم ابنتها، إضافة إلى وجود شبه كبير بينكما، زاد اهتمامها بك... خاصة، بعد أن خذلتها ابنتها بالزواج من رجل لا توافق عليه، ومن المؤكد أن رغبتها في التبني ما هي إلا نوع من التعويض عن ابنتها، مما يؤثر سلبياً على تطور حياتك ومستقبلك.

فردت ديانا باحتجاج:

ـ لكنها بحاجة إلى سكرتيرة خاصة.

ـ طبعاً... إنني أجد صعوبة في شرح الأمر... لكنني أفضل أن أدعك حرة في بناء شخصيتك تبعاً لإرادتك الخاصة، بدلاً من أن تكوني بديلاً عن فتاة أخرى. أفهم مشاعر السيدة واتيني، فمنذ أن صبغت ابنتها شعرها باللون الأشقر أصبح الشبه بينكما كبيراً جداً، لوناً وجسماً، فقد كانت شقراء صغيرة الجسم مثلك. علماً إنها تكبرك سناً، إلا أن استعمالها أدوات التجميل الحديثة ساعدها على اخفاء هذا التفاوت بكفاءة عالية.

بعد نقاش طويل اقتنعت الرئيسة بوجهة نظر ديانا الراغبة في الانضمام إلى السيدة واتيني، سعياً للسكن في بيت لائق، هاربة من الاستمرار في العيش ضمن دائرة حياة الدير الضيقة والصارمة في قوانينها ونظامها، بعد أن أمضت فيه سنوات طويلة. وبعد سنة أو أكثر من مشاركتها السكن للسيدة واتيني، وقبل بلوغها سن التاسعة عشر أدركت ديانا سبب رفض الأم الرئيسة.

فخر السيدة واتيني بابنتها الذي كان ظاهرة بحد ذاته قبل أن تهجرها، أصيب بضربة موجعة. ولقد استقرت ديانا معها مدعية أنها الابنة الشرعية، ولم يشعر أحد سوى قلة من الناس بأن ديانا ليست ابنتها الحقيقية، تلبية لرغبة السيدة التي طلبت منها أن لا تلفت النظر إلى هذه الناحية بالذات ولقد نجحت ديانا في تمثيل دور الابنة الشرعية ببراعة فائقة.

حتى ابن السيدة واتيني، جيري، الذي يرعى مصالح العائلة في مراكش انخرط في هذا الادعاء. ولو من باب المسالمة والمهادنة، فقد أبدى رغبة في عمل أي شيء يساعد أمه في التغلب على تعاستها لمغادرة شقيقته.

كان للسيدة واتيني استثمارات كبيرة ومبالغ ضخمة موظفة في مشاريع صناعية في الدار البيضاء... يشرف على هذه المشاريع رجل

أعمال اسمه سيمون سان كلير. لكن كيف توصل إلى السيطرة على هذه الاستثمارات، لم يكن لدى ديانا فكرة. كل ما تعرفه أنه يسيطر على معظم مصالح الشركات، وأن باستطاعته التحكم بمصير السيدة واتيني المادي، خاصة بعد أن وضعها ابنها جيري هو الآخر في موضع محرج جداً.

فقد ارتكب نفس الاثم الذي قامت به شقيقته إلا أن اثمه أسوأ بكثير... وبدا لديانا أن الأمر لا يصدق، فمع معرفة جيري لحالة أمه السيئة فقد هرب مع خطيبة سان كلير الفرنسية الجميلة.

صاحت السيدة واتيني باكية:

ـ اوه... الغبي... الغبي! ستكون هذه نهايتي يا ديانا. كيف تمكنت من انجاب هكذا أولاد؟ لماذا استمعت إلى جيري منذ البداية؟ قال لي: استثمري... بيعي كل شيء... والآن أصبحت تحت رحمة سيمون سان كلير القادر على تدميري وإفلاسي، ولا أجد سبباً يمنعه من ذلك.

لقد اتضح لديانا بعد معاشرتها للسيدة أن المال هو أهم ما يشغل بالها. وذهلت ديانا، وخاب أملها، لرؤيتها مهتمة بإمكانية خسارة مالها أكثر مما هي مهتمة بما سيحصل لجيري عندما يضع سيمون سان كلير يده عليه... فقالت لها:

ـ بكل تأكيد لن يرمي هذا المتوحش انتقامه فوق رأسك، فلست المسؤولة عما حصل. كما أن خطيبته ملامة أيضاً... لا يمكن لجيري أن يحملها ويهرب بها إذا لم تكن موافقة.

فردت السيدة بحدة:

ـ أنت لا تعرفين سيمون سان كلير، وإلا لما سألتِ... فهو لا يثق بالنساء العاملات... ولا حتى بأية امرأة. وما من شك أنه كان سيتزوج هذه المرأة ليوفر لنفسه ابناً ووريثاً، شخصاً يترك له ثروته التي لا تقدر. وأنا واثقة أنه إذا لم يجدها فسيسعى للانتقام.

فشهقت ديانا:

ـ نحن في القرن العشرين!

ـ هذا لا ينطبق إلا على قطاعنا وإقليمنا، لسيمون سان كلير دم مختلط، معظمه فرنسي، لكن أسلافه من البربر، وهناك إشاعة تقول أنه مخول لأن يدعو نفسه «بالشيخ». وله نفوذ كبير. وبما أنه لم يتجاوز السادسة والثلاثين فهو ينوي الاستفادة من هذا النفوذ قدر ما يستطيع.

سعت ديانا يائسة أن تهدىء من روع مخدومتها:

ـ إذا لم يكن رجل مبادىء سيدة واتيني، سنلجأ إلى القانون... قد يساعدنا.

فصاحت السيدة:

ـ القانون...! سترين بأسرع وقت ماذا سيحدث لو حاولنا اللجوء إلى القانون لحل أمرنا. إنه أذكى من أن يخرق القانون... إذا لم يعد جيري، فلست واثقة أنني قد اجرؤ على مواجهته... إنه بربري الأصل رغم تمتعه بسمعة عالمية في دنيا الأعمال.

ـ هل قابلته من قبل؟

ـ أجل، مرة واحدة، منذ بضع سنوات، وكانت ابنتي معي.

ـ وهل اعجبت بالمسيو سان كلير؟

ـ أظن هذا، فمعظم النساء يعجبن به.

ـ وماذا كان رأيه بها... بما أنه كان يبحث عن زوجة، ألم تكن هي مناسبة؟

ـ هذا ما فكرت به بالضبط. إلا أن ديانا ابنتي ترى ميالاً للاستبداد، وأن على الفتاة أن تخضع له كل شخصيتها إذا تزوجته.

اهتز جسد ديانا خوفاً ونظرت إلى السيدة التي تابعت:

ـ لكنك تعلمين الآن أن أعصابي لا تسمح لي بالسفر، وقد أنهار خلال رحلتي لانجاز هذه المهمة... وأنا لم أطلب منك من قبل أن

تفعلي لي شيئاً خارجاً عن المألوف... حاولت جهدي أن أكون لطيفة معك...

فهمت ديانا ما تقصده المرأة:

ـ أتطلبين مني الذهاب إلى كازبلانكا بنفسي، لكن أليس من الأفضل أن تذهبي أنت؟

ـ لا! ديانا صحتي لا تسمح لي بمغادرة البلاد.

ـ أرجوك، لا تكدري نفسك. سأذهب، لكن يجب أن تقولي لي بالضبط ما أقول وما أفعل. فليس لدي خبرة في التعامل مع رجال مثل المسيو سان كلير. حتى أنني لم أسافر إلى الخارج من قبل.

وانفرجت أسارير السيدة معبرة عن فرحها وارتياحها:

ـ لا حاجة لأن تقولي شيئاً. سأكتب لك رسالة اعتذار، أعرض فيها أسفي واستعدادي للمساعدة بأية طريقة استطيعها... من السهل أن أكلمه في الهاتف، لكن اللباقة تقتضي إما ذهابي شخصياً أو إرسال ابنتي نيابة عني.

ـ لكنني لست ابنتك سيدة واتيني!

ـ إنه لا يعرف هذا. عندما هربت ديانا، أجبرت جيري أن لا يذكر الأمر لأحد، ولا حتى سيمون... ولدي أسباب تدفعني للإيمان أنه لا يزال يجهل الحقيقة.

ـ هذا يعني أنني سأكذب.

ـ لا... لكن لا تنكري شيئاً... وسيعتقد، لشبهك بابنتي، أنك هي. كل ما أطلبه منك أن تدعيه يظن ما يريد، ليقتنع أنني صادقة في اعتذاري.

وبسبب معرفتها الجلية للسيدة بعد عملها معها عن كثب، تساءلت ديانا عما إذا كانت العلاقة بأولادها ستكون أفضل لو أنها اهتمت بهم بقدر ما تهتم بأعمالها، لكنها اقتنعت أن رحلة كهذه للمرأة العجوز ستكون متعبة.

ـ لا تقلقي... اتركي كل شيء لي... لا يمكن لمسيو سان كلير أن يفعل أكثر من إظهار غضبه الشديد.

ونفسها لا تزال مليئة بالشك، مع تمكنها من اخفائه، استقلت ديانا أول طائرة غادرت لندن، بعد أن تأكدت السيدة عبر اتصال هاتفي مع الدار البيضاء من أن المسيو سان كلير سيقابل ممثلتها الشخصية. مع ذلك فهي تحس أنها صغيرة، مرتبكة، تتطلع بتشاؤم إلى ما قد يكون وراء مقابلة مزعجة.

في الدار البيضاء، الميناء البحري والمركز الصناعي للساحل الغربي لمراكش، لم تكن تتوقع ديانا الكثير، ما عدا رؤية سيمون سان كلير بشكل سريع ثم العودة إلى انكلترا. ولا سبب لديها يدفعها للظن أنه سيطلب منها البقاء...

ليوم كامل... انتظرت ديانا أي نوع من الاتصال بالمسيو سان كلير. وبالفعل اتصلت بها سكرتيرته في صباح اليوم التالي لتخبرها بانها تمكنت من الاتصال به، وأنه على استعداد لرؤيتها. فسألتها:

ـ وأين سأقابل المسيو سان كلير؟ أعلم أنه مشغول، لكن آمل أن لا يبقيني منتظرة.

ـ لا... لا... بالطبع لا... لكنني أخشى أن تكون المدموزيل مضطرة للسفر إلى قصره... فهو لن يستطيع رؤيتها في الدار البيضاء.

ـ هكذا إذن... وكيف أصل إليه؟ لا أعرف مكان إقامته.

ـ لديه عدة منازل مدموزيل... وهو الآن في قصره في جبال الأطلس الأعلى، وإذا غادرت في الحال إلى مدينة مراكش، سيتدبر أمر مرافقتك في المطار.

وأكملت السكرتيرة، بعد فهمها أن سكوت ديانا بمثابة موافقة، اعطائها موعد اقلاع الطائرة، وموعد وصول التاكسي لإيصالها إلى القصر وعندما شكرتها ديانا، قالت السكرتيرة بحدة:

ـ أنصحك بأن لا تبقي المسيو سان كلير منتظراً، فهو رجل مشغول دائماً ولا يرحب بمن يضيع له وقته.

فردت ديانا بنفس الحدة:

ـ لا أنوي مطلقاً فعل هذا.

ـ إذن هذا كل شيء انستي.

بسرعة، وضعت ما قد تحتاج إليه لليلة واحدة، في حقيبة كتف صغيرة، مقررة أن تترك حقائبها في الفندق لحين عودتها، مع أنها لم تأت معها بالكثير لأنها لم تتوقع الاقامة هناك لأكثر من يومين.

بعد ساعة كانت تجلس في الطائرة المتوجهة إلى مدينة مراكش... بعد محاولات عدة للاتصال بالسيدة واتيني لطلب مشورتها لكن دون جدوى، عندها قررت أن تمضي قدماً حسب الخطة الموضوعة... لم تسهل الأمور لمعرفتها أن لا بد لها عن محاولة رؤية سيمون سان كلير... لماذا اختار جيري واتيني الهرب مع خطيبة الرجل الذي يمسك بثروة العائلة في قبضة يده؟

في مراكش، التي تبعد حوالي المئتي ميل عن الدار البيضاء، وجدت ديانا سيارة تنتظرها، كما أعطتها السكرتيرة التعليمات تماماً. سائقها كان أسمراً صامتاً، جعلها تصعد السيارة على الفور، سألته بالفرنسية أيتكلم الانكليزية، أجاب «نعم» ورغم معرفته بالانكليزية، لم يتكلم مطلقاً، بل بقي صامتاً أمام كل اسئلتها، بأدب.

كانت تعلم أن مراكش هي واحدة من ثلاثة عواصم للمغرب. مدينة كبيرة مسطحة، يحيطها السهل العريض الواسع الخصيب، حيث بساتين النخيل تمتد إلى الشرق والشمال، ومن خلف السهل ترتفع قمم بيضاء مكللة بالثلوج، هي قمم الأطلس الأعلى، تلك السلسلة الجبلية الضخمة التي تربط البلاد وكأنها العمود الفقري.

سارت بهما السيارة في طريق جيدة إلى أن وصلت إلى الجبال، فأخذت تمر بسرعة فوق حفر عبر طريق غير معبد، بعد أن خرجت

www.elromancia.com

عن الطريق الرئيسية، لكن السائق لم يبد اهتماماً لارتجاج السيارة كما لم يهتم لانزعاج راكبتها.

بقدوم الغروب تغيرت السماء من الليلكي النهاري، إلى القرمزي، ثم إلى النيلي القاتم... فوق الأفق الغربي هبطت الشمس في بركة ذهبية، تاركة ورائها خصلات أرجوانية تلمع قبل أن تتحول إلى رمادية بعد هبوط الليل، وبروز النجوم... وسارت السيارة لساعات، وازداد قلق ديانا وقلة راحتها... وعندما أحست أنها لم تعد قادرة على تحمل المزيد، وصلا إلى قصر ضخم.

ظنته ديانا قصراً، لكن بما أن الدنيا ظلام، لم تكن واثقة. أشكال شجر النخل كانت تمتد باسقة أمام زرقة السماء القاتمة، والظلال الأكثر عتمة وراء النخل كانت تشير إلى أنها نوع من بناء له حجم معين من الصعب تحديده. ثم مرت بهما السيارة بسرعة عبر باب مقنطر ضخم ضمن جدار كبير، وتوقفت.

القصر، على ما هو عليه، بدا لها بدائياً. ترجّلت من السيارة تتعثر دون مساعدة من أحد. شاهدت عيناها، بعد أن اعتادتا على الظلمة، قلعة من حجر خشن صلب ترتفع فوق رأسها. في الفناء حيث تقف، كان المدخل في زاوية، لاحظت أنها قائمة مع جدار برج فيه فتحات مستطيلة كالنوافذ الضيقة، وكأنها كانت تستخدم كبرج مراقبة لقلعة.

لوح لها السائق، بخشونة، بالدخول، فلحقت به. كان حال داخل القصر أفضل بقليل. له زينة من الجص المحفور وأرضية من الرخام، لكن بساطته لم توحي بالراحة والترحاب. ووجدت ديانا نفسها ترتجف، كما وجدت صعوبة في المحافظة على رباطة جأشها.

ـ لو سمحت من هنا مدموزيل.

أجفلت ديانا بحدة، فهي لم تلاحظ أن السائق تبدل بخادم يرتدي

زياً أبيض، كان أكبر سناً، وأساريره لطيفة، فاستدارت نحوه بارتياح... وسألته:

ـ هل سترافقني لرؤية المسيو سان كلير؟

فانحنى الرجل تأدباً:

ـ بل إلى غرفتك آنستي.

ـ شكراً لك... ولكنني أود رؤية المسيو حالاً. أفهمت؟

فقطب الرجل متردداً:

ـ عفوك انسة... السيد ليس هنا.

وتلاشى أملها بالعودة إلى مراكش تلك الليلة... وأحست بالذل، والخطورة، وجدت نفسها مضطرة إلى محاربة خوفٍ قاتل:

ـ ليس هنا؟ إذن، لقد اخطأت المكان؟

ـ لا آنستي، لم أقصد هذا. سيدي خرج، وسيعود قريباً. إنه في هذه اللحظات غير موجود!

ـ فهمت.

ودون أية كلمة احتجاج، لحقت به صاعدة سلماً من الرخام ثم عبر باب مقنطر قادها إلى غرفة نوم، وهي تحس أن كل ما تراه غير حقيقي، وأنها ستستفيق لتجد أنها كانت تحلم. فمدت اصابعها لتلمس الجدار المزين بالجص المحفور وسرعان ما تأكد لها أنها لا تحلم.

أصابت ديانا الدهشة عند رؤيتها غرفة النوم المريحة، والتي تحتوي على ديوان منخفض. مغطى بسجاد حريري فوقه وسائد حريرية أيضاً، أما أرضها فقد فرش بسجاد يدوي من الصوف. عبر الباب المفتوح للغرفة المجاورة، شاهدت الحمام. وقال الخادم:

ـ لو سمحت الآنسة بالبقاء هنا، سأرسل لك «زنده». ستساعدك للتحضير لعودة «سيدي».

ـ لا...! لا حاجة لأن ترسل أحداً. أستطيع تدبير نفسي، كما

أني لم أحضر معي ملابس كافية، لذا سأغتسل فقط.

ـ وإن يكن آنسة. أوامر «سيدي» أن تساعدك «زنده».

انحنى وهو يغادر تاركاً ديانا تعض شفتها ارتباكاً... منذ وصلت المغرب، كل القرارات خرجت من يدها، أولاً انصاعت لأوامر السكرتيرة، ثم للسائق، وأخيراً لهذا الرجل الذي يعاملها بدلال... وفيما بعد ستجد أمامها الفتاة الخادمة، التي على الأرجح ستحممها وتلبسها وكأنها طفلة.

بعد هذا كله قد تحظى بمقابلة «سيدي» الكبير أو المسيو... أو مهما كان لقبه الحقيقي، هذا إذا لم يكن متعباً من سفره! بشهقة غضب وإحباط، حلت محل الخوف، تمنت من كل قلبها لو أنها لا تزال في لندن.

فجأة أحست بالرجفة... لسماعها الرياح الليلية تتأوه حول الجدران العتيقة، حاملة معها إحساساً غريباً بالوحدة، كاد يصرخ لوحده. لطالما كانت حساسة للطقس، لكنها لا تذكر أنها تجاوبت بشفافية درامية كما تجاوبت الآن. خوف مرعب ملأ قلبها وهي تقف وسط الغرفة الغريبة، مضاف إليه تأثر غريب. وكأن المستقبل يومئ إليها باغراء ومع ذلك تنفر منه. كانت تحس أنها تقف على مفترق طرق، وليس لديها فكرة واضحة عن الاتجاه الصائب. عقلها متشوش في ضباب من اللاقرار، وغريزتها تحذرها وتطلب منها الهرب من هذا المكان قبل عودة سيده الغائب.

ثم ظهرت فتاة في الباب، وابتسمت تعرف عن نفسها:

ـ أنا «زنده».

ديانا تعرف اسمها، فلم ترد عليها. لكن الفتاة لم تضطرب من صحبتها:

ـ سأساعدك على أخذ حمامك، آنسة! اخبرني صالح بأنك لم تحضري حقيبة ملابسك، لا بأس فلدينا الكثير. أتسمحين بخلع

ملابسك استعداداً للاستحمام. سأساعدك لتكوني مستعدة لمقابلة سيدي.

وتساءلت في سرها ما معنى هذا؟ واعترى تفكيرها انطباع أوحى لها وكأنها ضحية بشرية مقدمة لمتعة سيدهم المبجل! وابتسمت ديانا بضعف:

ـ بالطبع سأستحم... لكنني أنوي ارتداء ملابسي نفسها ثانية.

المياه حارة منعشة، واستمتعت بحمامها استمتاعاً لم تعتد عليه سابقاً. ملأت زنده المغطس بالزيوت العطرة، شارحة بانكليزية ركيكة انها مصنوعة من أعشاب تبعاً لوصفة سرية. ومهما تكن تلك الوصفة المهم أنها شعرت براحة لم تشعر بمثلها في حياتها وتساءلت ما إذا كانت تستطيع سرقة صنع هذه الوصفة لتحملها معها إلى موطنها.

كان يمكن لها أن تطيل فترة الاستحمام مدة أطول لولا وجود الخادمة. فبالرغم من طلبها أن تختلي بنفسها فإن طلبها رفض بكل بساطة. لم تسترح مطلقاً للطريقة التي تولت فيها الفتاة قيادة الأمور، وعبرت الخادمة عن مشاعرها وما قد يحصل، وهي تمسك بشعر ديانا الذهبي لتغسله وكأنه المعدن الثمين الذي لا يمكن أن يترك لغبار ورمال الطريق قاتلة:

ـ مدموزيل جميلة جداً وصغيرة جداً... «سيدي» سيحبك كثيراً.

لم يقل لها أحد من قبل إنها جميلة. لكن سعادتها ولّت بعد سماعها اخر ملاحظة تفوهت بها الفتاة. فقالت:

ـ أنا واثقة أن المسيو سان كلير لن يهتم بمظهري... فأنا أتوقع أن أسافر في الغد زنده، لذا رأيه لا يهم.

فضحكت الفتاة بنعومة:

ـ زوار «سيدي سيمون» يبقون في القصر لفترة طويلة، إذ لا يمكنهم مغادرته بسرعة.

الزوار الذين تقصدهم زنده لا بد من النساء... ففي محيط

صحراوي كهذا قد يجد المسيو سان كلير نفسه حراً في الانغماس في خطايا لا تعرف عنها خطيبته شيئاً... التفكير بخطيبة المسيو أصابها بالخجل... ربما هو الآن منشغل في البحث عنها! على المرء أن لا يتسرع في أحكامه قبل معرفة الوقائع.

بعد أن انهت زنده تجفيف وتمشيط شعر ديانا، عادت هذه الأخيرة لارتداء بذلتها القطنية دون السترة، فقد كانت ليلة دافئة، ورفضت ارتداء «الجلابية» الحريرية التي قدمتها لها زنده، متجاهلة خيبة أمل الفتاة... فلا فائدة من أن تبدو مرتاحة مرتدية ثياباً جديدة فهي تقوم بزيارة رسمية. وإذا كانت مضطرة لتقديم رسالة السيدة واتيني فمن الأفضل تقديمها بطريقة عملية.

أخيراً أصبحت جاهزة، وبعناية فائقة من زنده، غادرت الغرفة لتنزل إلى الطابق السفلي... كانتا عند أسفل السلم تقريباً عندما انفتح الباب الخارجي على مصراعيه وخرج منه رجل. فتوقفت ديانا مكانها تحدق به. كل شيء في داخلها أصبح مشلولاً. لم تذكر مطلقاً أنها أحست بمثل هذا من قبل. ربما هذا هو التأثير الذي قرأت عنه في القصص والروايات الخرافية: تأثير رجل الصحراء كالسحر على الغريب. وارتفع رأس الرجل بحدة لتلتقي عيناها بعينيه السوداوين، ولتمر رعدة خوف عبر عينيها إلى كل أعصابها كالصاعقة، مما جعلها ترتجف.

وقف الرجل يقابل نظرة ديانا المحدقة متجهماً، وضاقت عيناه:

ـ مدموزيل؟

صوته حاد، متجهم، له تأثيره الخاص، فلعب على إحساساتها. كما تلعب الأصابع على آلة موسيقية ذات رنين مرتفع، مما جعلها مشدودة كأوتار الغيتار. وحاولت أن ترد بصوت هادىء:

ـ مساء الخير... أنا أنتظر رؤية المسيو سان كلير.

بابتسامة قاسية فجائية، نظر إليها وعيناه تلمعان سخرية على

منظر يديها المرتجفتين.

ـ إذن أنت لم تعرفيني مدموزيل واتيني؟ بالطبع مضى زمن طويل. لم تشاهديني أرتدي مثل هذه الثياب... أم أن السنين غيرتني كثيراً، أكثر مما تبدو أنها غيرتك؟

أحست ديانا بالدمار الكامل، فتمسكت بحاجز السلم في وقت ضربتها موجة رعب. ملمس الخشب القاسي أعادها إلى رباطة جأشها، وشكرت ربها على أن ذكاءها، الذي طالما أدهش الراهبات، لم يخذلها... إذن هذا هو سيمون سان كلير. وعليها أن تعترف أنها لم تعرفه لأنهما على عكس ما يظن، لم يلتقيا من قبل... لكن لحظة الفرصة المناسبة مرت، ولن تعود بسهولة مرة أخرى، لكن تعليمات السيدة واتيني لا يمكن تجاهلها.

رفعت رأسها قليلاً، وابتسمت، ابتسامة أملت أن تخفي ارتباكها الداخلي:

ـ أنا آسفة جداً مسيو سان كلير، كما قلت، ان تتكرك بهذا الزي، يبدو لي رائعاً... أنت محق تماماً... لم أتعرف إليك.

●●●

٢ ـ الغد لن يأتي

تسمرت عينا سيمون سان كلير على ديانا وقال بصوت جاف:

ـ ما ارتديه ليس زياً للتنكر آنسة واتيني.

احمر وجه ديانا فتمتمت:

ـ لا... آسفة... إلا أنني لم أتوقع رؤيتك بهذا الزي.

ـ لدي الحق أن أرتديه... فلا تسارعي للقفز إلى استنتاجات خاطئة.

ولم يكمل الشرح. بل امتدت يده ليمسك بذقنها رافعاً رأسها إلى الأعلى لينظر إليها:

ـ أعرف أن السنين غيرتني، لكن أنت، مدموزيل، تبدين أصغر مما كنت أتوقع. ولا استطيع التصديق أنك قاربت سن الثلاثين؟

ارتجفت وأخفت نظرها عنه، كي لا تظهر خوفها، فالسيدة واتيني كانت واثقة أنه لن يتذكر ابنتها، أو على الأقل سيذكرها بغموض... والتظاهر بأنها أكبر سناً، وإقناعه بأنها ابنة السيدة واتيني لن يكون أمراً سهلاً خاصة أنها بعد لقائها به أصبحت تعي ماذا ينتظرها... كيف أقنعت السيدة واتيني نفسها أنها قادرة على خداع رجل مثله؟

ابتلعت ديانا ريقها بصعوبة، وهمست بتعاسة:

ـ هناك وسائل عديدة تمكن المرأة من المحافظة على مظهرها الفتي، مسيو.

ـ هذا ما يبدو لي.

لكن ديانا لاحظت ضيق عينيه بحيث أصبحتا تشبهان عينيّ جواد أصيل وانفتاح فتحتي أنفه المتوتر... ثم أخذت عيناه تعريانها، وكانت واضحة تماماً أمامه. أخذ قلبها يخفق بجنون خاصة وأن نظرة عينيه دفعتها إلى التفكير بتصورات مخيفة، فأخفضت عينيها كي لا تفضحانها.

كانت مرتبكة مشوشة لدرجة لم تتمكن من طرق الموضوع بدبلوماسية فسألته بصراحة:

ـ هل كنت في الخارج تبحث عن... خطيبتك؟

ـ وهل قطعت كل هذه المسافة لتسأليني هذا السؤال؟

احمر وجهها لصده المباشر والموجه إليها بسخرية لاذعة... أحست بالغضب من نفسها لنسيانها ما تدربت عليه لاستهلال الحديث.

ـ أنا آسفة جداً مسيو... إنني والسيدة واتيني ندرك تماماً مدى مشاكلك. وها أنا أحمل لك رسالة اعتذار شخصية... أرسلتها السيدة واتيني وهي تشعر أن هذا أقل ما يمكن أن تفعله.

بسرعة، وهي تحس بصمته المتجهم، أخرجت الرسالة من حقيبتها ومدت يدها إليه. دون تردد استلمها ومزقها إلى نصفين، وأمام نظرات ديانا المرتعدة رماها بعيداً، وحركاته تبدي ازدراءاً بارداً متعمداً.

اتسعت عينا ديانا وشهقت وانحنت لتلتقط قطع الرسالة، راغبة في البكاء.

ـ لما لم تقرأها؟ لا يمكنك لوم السيدة واتيني على ما حدث!

أمام دهشتها الكاملة قال:

ـ لقد تحدثت إلى والدتك على الهاتف، وقالت لي إنك في طريقك إلي. أما بالنسبة للومها لما حدث، فلن أتحدث بالأمر، لكنني أجد كل أم مخطئة عندما تربي ولدها على الحصول على كل ما

يستهويه، دون النظر إلى الألم الذي قد يسببه للآخرين.

- جيري ليس من عادته...

قبل أن تستطيع اخراج كلمة أخرى، أحست بيده على مؤخرة عنقها:

- اتركي لي تفسير الأمور.

وأخذ منها بقايا الرسالة ليضعها في جيب عميق، وعيناه تلمعان من الغضب لجرأتها في الدفاع عن رجل اساء إليه... وأحست باصابعه قاسية على عنقها، وأنفاسه خشنة على وجهها وهو يهزها، وازدادت يداه إيلاماً لها عندما حاولت إبعادهما عنها... وعندما تركها ترنحت واستندت إلى قطعة أثاث لتعيد توازنها.

كان وجهه ينحني نحوها متجهماً، أسوداً ومنذراً بالشر وهو يقول:

- تذكري آنسة واتيني. لن استمع إليك عندما تتحدثين عن أخيك. لن أسمح لاسمه بأن يذكر في منزلي.

فشهقت ديانا مقطوعة الأنفاس:

- آسفة. من الطبيعي مسيو أن تحب خطيبتك وأن تحس بالمرارة ضد عائلة واتيني كلها... والسيدة متكدرة وحزينة جداً.

التوت أطراف فمه، وقال بصوت ساخر بارد:

- استطيع تصور هذا. وبكل تأكيد تحس بالتعاسة، مثلك تماماً، لأن ابنها الغالي هرب منها. لكنني أظن أن أكثر ما يقلقها هو أعمالها، التي أسيطر عليها، كما تعلمين، وإلا لما أرسلتك.

- أنت... أنت مخطىء مسيو.

فتجاهل احتجاجها ونظر إليها بوقاحة أخجلتها:

- هل طلبت منك محاولة مواساتي مدموزيل؟ أنت تبدين كالملاك. ومظهرك بدأ يخدعني... لكنني سمعت الكثير عن سمعتك السيئة فأنا أعرف أن براءتك انتزعت منك منذ زمن بعيد.

فصاحت ديانا وقد نسيت بأن المتحدث إليها، ذلك الرجل المجروح، الذي من الطبيعي أن يكون غاضباً وبأنها هنا لتهدئته وإعادة ترويضه.

- كيف تجرؤ على هذا؟

- أرجوك مدموزيل... لا حاجة لك للادعاء، لست مهتماً بك لأحكم عليك وأرميك بعدها للذئاب، ولن أهاجم «عفتك» المزعومة... فأنا الآن مهتم أكثر بعشائي.

ابتلعت ديانا ريقها بحنق كبير، وبغباء همست:

- أظن...

كان على وشك الاستدارة عنها، فتوقف:

- نعم مدموزيل؟ ماذا تظنين هذه المرة؟

- لا شيء مسيو. كنت على وشك القول إنك متكدر... لكنني سبق وقلت هذا!

- متكدر؟ تملكين قدرة على تغيير مجرى الحديث، وهذا ما لا أذكره فيك. لقد بدأت تثيرين فضولي. إشارة قد تكون جيدة لرجل محبط مثلي.

امتدت يده لتمسك بكتفها، فحدقت به، تحس باصابعه تحفر في كتفها، وتساءلت كيف يمكن لخطيبته أن تتركه وتفضل عليه جيري. أعادت النظر إلى جسده القوي الرشيق، إلى وجهه الوسيم، إلى لمعان الثقة بالنفس في عينيه وارتجفت... وظنت نفسها أنها عرفت...!

قد لا يسمح سيمون سان كلير لأية فتاة أن تكون حرة حتى بأفكارها الخاصة... فكيف لها أن تكون حرة في قراراتها وأعمالها. إنه مسيطر، قاهر، يطلب الطاعة العمياء إلى أن تصبح المرأة مسلوبة الارادة، ثم يأخذ منها كل ما يريده دون أي وخز من ضمير... أدركت شخصيته هذه من ضغط يديه. فهما يوضحان لها ذكاؤه

www.elromancia.com

المخيف، وكأنه يتحدث عنه بصوت مرتفع.

أحست فجأة بالتوتر منه، ففي الردهة الكبيرة تلك حيث لا يوجد سواهما، كان ظلاهما يمتدان بفعل الضوء الخافت ليمتزجا بالظلال الأخرى حولهما... وكان الصمت مطبقاً... ومع ذلك خيل لها أنه تحدث هامساً، ومهمهماً بلغة لم تفهمها... قد يكون هذا همس الريح، صوت ضربات قلب، أو خفق نبضات. وقد يكون ارتجاف شفتين.

وانتبهت لحظة، لتجد نفسها محدقة به فخافت أن تنعكس أفكارها هذه في عينيها. تراجعت إلى الخلف. فوقعت يده عن كتفها ليخف بعض من التوتر الذي شل حركتها... وبجهد فائق عادت إلى برودتها واتزانها.

ـ أنا آسفة لتطفلي على حزنك مسيو. لكنني أتيت إلى هنا بناء لطلبك. كل ما هو مطلوب مني، تسليمك الرسالة في الدار البيضاء، ثم العودة مباشرة إلى بلدي.

ـ لن تعودي إلى بلدك، في الوقت الحاضر على الأقل.

أحست بخطر شديد من اقترابه، فتراجعت:

ـ ماذا تعني؟ أعرف أنني لن استطيع العودة الليلة... لكن في الغد...

ـ هناك مثل قديم «الغد لا يأتي أبداً» أليس كذلك... لا مدموزيل! ستبقين معي مهما كانت الظروف... فأمك أرسلتك من أجل...

ـ أجل... لكنك مخطىء حول...

فقاطعها متجهماً:

ـ أنا لا اخطىء أبداً حول تلك المرأة. أتعتقدين أنني قد أصدق بأنها ترسل ابنتها الوحيدة عابرة كل هذه المسافة من أجل تسليم رسالة؟ عرض للسلام هو أنسب تسمية. لا... سيدتي إنها تأمل

تسليتي بك تعويضاً عن خطيبتي، إلى أن تعود هي وشقيقك العزيز. فلا تقولي لي إنك لم تكوني مدركة هذا مدموزيل.

فصرخت مذهولة:

ـ هذا غير صحيح.

وقاطعها بحدة متابعاً:

ـ إنها تذكر دون شك أنني كنت منجذباً إليك عندما شاهدتك أول مرة. أعترف أنني صعقت لجمالك من أول نظرة، لكن عندما نظرت عن كثب لاحظت آثار الانغماس في الملذات واضحة عليك مما جعلني أنفر... لكنك كنت صغيرة جداً فشككت ثانية في حكمي... لكن بعد تحقيقات عدة... ماذا وجدت؟

فسألته برعب:

ـ ماذا وجدت؟

ـ لا شيء قد يدهشك. فمن شقيقك نفسه عرفت كيف صبغت شعرك. وعلمت كذلك، من مصدر آخر، انك رغم صغر سنك كان لك العديد من العشاق، وأنك قبل أن تأتي إلى هنا مع أمك، كنت عائدة لتوك من رحلة قمت بها مع رجل عجوز بعمر والدك.

فابيض وجه ديانا وترنحت، لكنه تابع دون رحمة:

ـ لا تدعي بأنك صدمت مدموزيل. أذكر يوماً حضنتك فيه بين يدي بقصد التسلية، يومها كنت تدركين أنه لم يكن بيننا أي تفاهم أو رباط... ربما خاب أملك لأنني لم استمر في علاقتي معك. فاهتمامي بك تلاشى منذ ذلك اليوم. ولا أظنك مررت ببالي سوى عرضياً، طيلة هذه المدة ولغاية هذه اللحظة بالذات.

فقاطعته يائسة:

ـ لو أنك تصغي إلي...

ـ وفري علي كلامك. أنا لا أفتش عن أعذار... لكن... في غياب خطيبتي، قد أكون راغباً في أن أسلي نفسي مع امرأة قادرة على

www.elromancia.com

المحافظة على صغر سنها.

ـ أرجوك... توقف عن هذا!

بدت القساوة على فمه، لن يتوقف... التوت أطراف شفتيه:

ـ إذا لم يصلنا خبر من شقيقك آنسة واتيني، واضطررت للخروج معي لنبحث في الصحراء فقد يعود شعرك الذهبي إلى أصله الأسود، قبل أن تعودي إلى المدينة من جديد.

ـ لا يمكنك إجباري على البقاء!

ـ إلى أن يعيد شقيقك خطيبتي!

ـ لكنني أجد صعوبة في التصديق أنك ترغب في عودتها بعد ما حصل!

شيء ما في عينيها جعله يقطب جبينه، ويسألها بحيرة:

ـ ألا تؤمنين إذن أن الحب الحقيقي قادر على غفران كل شيء؟

فهمست مذهولة:

ـ كنت اؤمن بهذا... لكنني قرأت أن الرجال نادراً ما يغفرون كالنساء. وبما أنك تؤمن بالفضيلة، لا يمكنني رؤيتك وأنت تغفر لفتاة لم تكن مخلصة لك، ومع رجل آخر.

بالتقائها الغضب الأسود في وجهه، أدركت أنها لم تختر كلماتها بعناية، وبمحاولة يائسة لاصلاح الأمر قالت:

ـ أفهم أنك قد تكون مكتئباً لأجلها، وآمل أن تجدها... لكن بالنسبة لي، يجب أن أعود... لقد تمتعت بمزاح مزعج يمنعني من البقاء هنا... وبما أنك تبدو غير معجب بي، فأنا واثقة أنك ستسر للخلاص مني.

فهز كتفيه غير مبال، وبدون إحساس:

ـ اؤكد لك مدموزيل أنك لن تعودي إلى موطنك، وأجد صعوبة في فهم عدم رغبتك في مساعدتي في التفتيش عن شقيقك.

ـ لكن يجب أن تعرف مسيو، أنني كغريبة في هذا البلد، لن

استطيع مساعدتك في التفتيش عن أحد.

ـ هذا ما أنا غير متأكد منه... لا بد أن شقيقك يهمه أمرك. ولو عرف أنك سجينة هنا، ألن يعيده هذا إلى صوابه؟

فابتسمت بقلق:

ـ أخشى العكس لأن كثيراً من العائلات الانكليزية لا يهمها هذا التقارب مسيو. وأعرف العديد من الرجال الانكليز لا يعرضون مستقبل سعادتهم للخطر في سبيل شقيقة، أو أي شخص آخر.

ـ مهما يكن الأمر... ستبقين معي إلى أن أجدهما. ولو كنت متعقلة، آنسة واتيني فستحاولين تعزيتي قليلاً...

هجرها الحذر بعد أن استولى عليها الغضب، فصاحت به:

ـ أنت الآن تتصرف كالأحمق! لا يمكنك التصرف وكأنك شيخ في صحراء... فهذا لن ينفع معي!

ـ لكنني هكذا تماماً آنسة واتيني.

ـ لا يمكنك... مستحيل...!

ـ اوه... لكنني كذلك! لقد ورثت هذا اللقب، من جد أمي الأكبر، الذي يجري دمه في عروقي.

كبحت ديانا شهقة رعب... فقد أدركت الآن أنه قادر على لعب دور قائد بربري... فحاولت الحديث بهدوء:

ـ سمعت أنك فعلت الكثير لقبائل الصحراء. وأنك تغدق عليهم بكرمك ومالك.

ـ أنا لم اشتر محبتهم إذا كان هذا قصدك. فأنا أساعدهم قدر استطاعتي لأنني اعتبرهم بني قومي. وفي المقابل يقدمون لي ولائهم الشديد... كلنا أخوة، ولا يوجد أحد قد يساعدك على الهرب مني، مهما كانت الرشوة كبيرة.

فصاحت بصوت مرتجف:

ـ لكنك فرنسي!

www.elromancia.com

فابتسم ساخراً:

- تقريباً... لكنني أنتمي تبعاً لشجرة عائلتي، إلى سلف إسباني، وانكليزي، مما يجعلني هجين مختلط... لكن مهما يكن، فهذه بلدي، وهنا مدموزيل، أعيش وسأموت بكل تأكيد.

كلامه كان صلباً، باتراً، ولا يمكن أن يكون هناك شيء آخر للقول. حدقا ببعضهما، خصمين لدودين، يرفض أي منهما التراجع... لكن ديانا أحست بأمر غريب يسيطر عليها... بانجراف في عمق لا غور له في بحر أسود. وبدأت نبضاتها تتسارع عند أسفل عنقها، وموجة نارية تجتاح جسدها دون اعتراض... وبدون وعي ترنحت، فمد يديه ليثبتها... لكن حرارة يده على ذراعها العاري كانت وكأنها تنفخ في النار التي تستعر.

- مدموزيل؟

بصوته الأجش، أعادها إلى صوابها. فتراجعت عنه. لتتفوه بما تبادر إلى ذهنها، ولأنها كانت مشوشة، عادت إلى حديثهما الأول:

- ماذا تنوي أن تفعل بجيري وخطيبتك عندما تجدهما؟

- لم أفكر بهذا بعد... بالنسبة لأخيك النتيجة لن تكون مرضية، كما أخشى... وإذا لم أجدهما سيكون انتقامي مريعاً أيضاً.

في الصباح التالي، استيقظت ديانا غير مصدقة ما حدث لها... في ظروف أخرى كان يمكن لها التغاضي عن كرامتها والنزول إلى الطابق الأرضي مرتدية «الجلابية» التي نامت بها، تتمتع بما هو جديد... أما الآن فهي سعيدة بما حصل وكل ما عليها أن تجد عذراً كي لا تلتقي بسيمون سان كلير. شحب وجه ديانا، واعترتها رجفة قوية، عندما استعادت أحداث الليلة السابقة، وتساءلت عن فرصتها في الخروج من هذا المكان، إذا لم يسمح لها السيد سيمون بالمغادرة؟ وأدركت متأخرة كم كانت السيدة واتيني مخطئة في ظنها أنه قد يتصرف معها كبقية الرجال... واضح أنه بالرغم من علاقاتهما

التجارية فإنها لا تعرفه جيداً، ولهذا لم تشك مطلقاً بما يحيط هذه المهمة من أخطار.

حاولت ديانا تهدئة نفسها، تقاوم ما بدا لها أنه هستيريا تتصاعد في داخلها... إنها لا ترغب في أن تبدو جبانة خائفة... إذا ضبطتها زنده تبكي فقد تبلغ سيدها تواً. وبما أنه يحتقرها فكيف سيتصرف معها فيما لو انهارت أمامه؟

مع كل جهودها لاعادة كبريائها، وجدت أنه من الصعب عليها مواجهته بشجاعة تامة. عند لقائهما اليوم، قررت أن أول شيء يجب أن تفعله هو إيجاد سيمون سان كلير. وبعدها عليها أن تقنعه بتغيير رأيه حول استبقائها في القصر... ليلة أمس كان تعباً وغاضباً... ومستعداً لصب جام سخطه وغضبه على أي إنسان، خاصة على فتاة يعتقدها شقيقة الرجل الذي اساء إليه.

كيف ستتمكن من تخليص نفسها من الوضع الذي زجت نفسها فيه؟ فلو أصرت على أن يستمع إلى الحقيقة... وهذا ما رفضه ليلة أمس... فقد يفقد كل شفقة على جيري ووالدته عندما يجده... فلا ضير إذن أن تتركه يتابع ظنه أنها شقيقة جيري، ليوم أو يومين. عرفت أنه يحتقر شقيقة جيري الحقيقية، ولا تظنه سيتجاوز التهديد الكلامي. فرجل كهذا لا يفرض نفسه على امرأة إلا إذا كان يهواها، أو تعجبه على الأقل. لكن احتقاره لابنة السيدة واتيني شديد كما لاحظت، وما من شك في أنه لن يلمسها!

بما أنها لم تحمل معها ملابس، فقد اضطرت للنوم بالجلابية الحريرية الشفافة التي قدمتها لها زنده، وانتبهت إلى شفافيتها الفاضحة بذهول فأخذت تبحث عن ملابسها... عندما ظهرت زنده كانت قد اقتنعت أن ملابسها اختفت.

وردت زنده على سؤالها الحائر بأدب بريء:

- أخذها «السيد» وأمر بإحراقها.

www.elromancia.com

- إحراقها؟ اوه... لا!

- بلى مدموزيل. أنت مضطرة الآن أن تلبسي ما تقدمه لك زنده.

أظهرت لها الفتاة السروال والسترة البيضاء الفضفاضة التي تحملها، وكالعادة القماش من الحرير الرائع. وأدركت أنها إذا كانت راغبة في رؤية سيمون، عليها أن تسرع، ولا مجال لها لتعطي غضبها فرصة وعلى كل الأحوال، ليس من حقها أن تسبب المعاناة للفتاة المسكينة.

- حسناً. لكن ألا يمكنني الحصول على ملابس داخلية؟

- والملابس الداخلية أيضاً... أحرقت!

وضحكت زنده:

- لكنني وجدت هذه لك... إنها جديدة.

أخذت ديانا تفكر بوحشية هذا الرجل... وببساطة طريقته في إظهار من هو السيد هنا! إنه بالفعل متوحش، ومع معرفتها بأن عليها أن تكون حذرة، فقد كانت راغبة بأن تراه وتقول له رأيها فيه.

وساعدها غضبها الشديد على ارتفاع معنوياتها، فاغتسلت بسرعة، ثم ارتدت رغماً عنها الثوب البغيض، والضيق عند الكاحلين. وساعدتها زنده، تربط لها الحزام العريض تحت صدرها العامر المرتفع، وتبدي إعجابها بنعومة جسدها الذي ظهر عارياً ما بين الحزام وبداية السروال، وارتدت في قدميها خفاً هشاً له أطراف معكوفة.

لم تستطع النظر إلى نفسها في المرآة، ولا الاستمرار في تحمل تمتمة زنده بالاعجاب... سرحت شعرها بسرعة وربطته إلى الخلف... صحيح إنه لم يبدو جميلاً براقاً، لأنها لم تكن راغبة في أن تبدو جذابة أمام سيمون سان كلير.

مستعدة... انطلقت تنزل السلم العريض... ولدهشتها شاهدته في الحال يقطع الردهة الكبيرة. فأرجعت المعطف الخفيف الذي

وضعته زنده حول كتفيها إلى الوراء، وتقدمت نحوه بكل شجاعة. من الواضح أنه كان يرتدي ثيابه للخروج... فارتفعت معنوياتها لمعرفتها بخروجه.

استدار نحوها فجأة، ومرت عيناه على شكلها بسرعة... لكنه تأخر قليلاً في النظر إلى أماكن خاصة في جسدها، والتي كشفها المعطف الحريري المفتوح. أخفت ديانا إحساسها بالقرف على وقاحته وضمت بسرعة أطراف القفطان حولها.

- مسيو... يجب أن أكلمك.

- حقاً؟ صباح الخير!

فتنفست عميقاً، لكنها تمسكت بما صممت عليه:

- أجل... أود العودة إلى مراكش. أرجوك قبل أن تذهب أن تعطي أوامرك للسائق بإيصالي هناك. وسأدفع لك مصاريف الانزعاج... بالطبع.

- حقاً آنسة واتيني؟ وما الذي يجعلك تظنين أن لدي سائق هنا!

أحست أنه يضحك منها. والغضب الذي كانت تقاومه تصاعد أكثر، لكنها تمكنت بجهد أن تكبحه.

- الرجل الذي جاء بي بالأمس لا بد أنه لا زال هنا... وأصرّ على أن تحضره لي، فأنا بكل تأكيد سأذهب.

- لكن ليس إلى مراكش. فأنت قادمة معي... إلى الصحراء.

أجفلت، ونسيت أن تخفي غضبها:

- لا! لا! لن أذهب معك بكل تأكيد! قد تجبرني على ارتداء ملابسكم السخيفة هذه مسيو، لكنك لن تستطيع اجباري على الذهاب معك. وفي الواقع، لن تستطيع إجباري على شيء لا أريده... أيمكنك هذا مسيو! أشعر بالأسف عليك، وأحس بالشفقة عليك... لكن أكثر من هذا... لا!

- اه... ولكنك ستفعلين يا نافثة اللهب الصغيرة! فأنا أشعر هذا

www.elromancia.com

الصباح من أعماق قلبي بالحاجة لأن أُخضع شخصاً ما... فلماذا لا تكونين أنت مدموزيل؟ ربما سيجعلني هذا أقل كراهية لعائلتك لو استطعت اخضاع أحد أفرادها... ولو أنني قد لا أرتاح.

- لدي انطباع أنني لا أعجبك مسيو!

- وإن يكن؟

- لن تكون سعيداً في رفقتي... وقد تجد الأمر لا يرضي غرورك.

فهز كتفيه:

- ليس لدي أية توقعات... بكل بساطة قد تكونين فعالة... في ارضاء رغباتي... إذا بدأت أعاني من الاحباط... أو ربما سأتمتع باحباطك أيضاً عندما لا أشعر برغبة في ملامستك.

امتزج الغضب والخوف بالاشمئزاز من عجرفته فصاحت وهي تتراجع عنه:

- كيف تجرؤ على قول هذا؟ أرفض الذهاب معك... ولا عجب في أن تكون خطيبتك قد هربت منك!

تجمد الدم في عروق وجهه غضباً حتى أنها ظنته سيضربها. لكنه استدار ليصفق بيديه فظهر صالح وزنده، كالظل المخلص، فكلمهما بلغة لم تفهمها.

أطاعت زنده الأوامر، وأحضرت برنساً أبيض اللون، رماه سيمون دون اكتراث فوق كتفي ديانا.

- سيبعد هذا عنك الحرارة. هيا، يجب أن ننطلق الآن.

تجاهلت ديانا هذه التعليمات المتعجرفة، وتجاهلت نظرة الرجاء في عيني زنده، ورمت البرنس إلى الأرض تصرخ:

- لن اسمح لك باختطافي! بإمكانك الذهاب ورمي نفسك في بئرٍ قرب واحة مسيو!

- اختطاف؟ ومن سيصدق أنك لم تأتي معي رغبة إلى الصحراء

لتبحثي عن أخيك المحبوب؟

تقدم ليمسك بها فتراجعت... ماذا يجب أن تفعل الآن؟ لكنها تابعت اقناع نفسها أنه قد يتمتع باخافتها، وقد لا تكون لديه نية حقيقية في تنفيذ تهديداته غير المعقولة.

وهي مترددة، تنكمش على نفسها كالقطة المذعورة، فاجأها بالانحناء وحملها بين ذراعيه... حاولت أن تتكلم، لكن هذا بدا لها مستحيلاً لتوقف أنفاسها في حلقها. حتى أن الخوف سلبها التفكير الصافي... وحملها إلى الخارج، حيث كانت عربة نقل كبيرة تقف منتظرة. ودون كلمة، رماها في المقعد إلى جوار السائق، ثم قفز إلى جانبها وأعطى السائق التعليمات بالانطلاق.

وانطلقت خلفهما سيارتان أخريتان محملتان بالرجال، أشار إليهما سيمون للّحاق به... فسارعت ديانا إلى إخفاض رأسها الأشقر لتدفن أسنانها البيضاء في معصمه العاري الذي كان يحيطها به.

ونفر الدم، مما دعاها إلى التراجع مذعورة. لكنها لاحظت العلامات العميقة التي تركتها أسنانها في العضل القاسي. ثم انقطع الصمت القصير بصوت لعنات سيمون، معبراً عن غضبه بضغط الشديد على رأسها، واشتدت قبضة يده لتلوى وجهها نحوه. فأصيبت بدوار بسبب الثورة التي سببتها، وانكمشت على نفسها ترتجف من الغضب الشرير الذي بدا في عينيه.

●●●

www.elromancia.com

٣ ـ عيناك بلون المطر

وثارت ثائرة سيمون سان كلير لاعناً ديانا بالفرنسية بصوت منخفض، إلا أن نبرة صوته المنخفض كانت تحمل شراً مؤكداً لم ترى ديانا مثيله من قبل.

ـ سوف تنالين قصاصك مدموزيل. يا إلهي... سأعمل على ترويضك ولو كان هذا آخر عمل لي في حياتي!

ـ أنا... أنا... آسف مسيو! ولكن إذا كنت ستتصرف كالوحش الكاسر باصطحابك لي رغماً عني، فلا تتوقع مني تصرفات متمدنة.

ـ لست أنا من يتصرف كالمتوحش!

وترك شعرها بعد أن شده بقوة موجعة فشهقت:

ـ أكرهك! ومع ذلك لم أعضك عن قصد.

ـ أتمنى لو أسمع منك اعتذاراً صادقاً... وها أنت... تبدين امتعاضك وكأنك تخافين من أن يسممك دمي!

فردت، صادقة هذه المرة:

ـ آسفة.

ولم تبدِ تأسفها، لأنها عضته، بل لتصرفها الطفولي، وفقدانها اتزانها. وطلبت منه على مضض وهو مرتبك بربط الجرح:

ـ أيمكن أن أربطه لك؟

أحست بالراحة لزوال غضبه عند عرضها، فمد يده متجهماً متصوراً أنها ستعيد الكرة وتعضه للمرة الثانية.

ـ افعلي ما شئت، وقبل أن تتهميني بالمبالغة في تفسير الأمور والأشياء، سأقول لك مدموزيل، إن أقل جرح لا يلقى العناية السليمة في هذه البلاد، قد يصاب بالتهاب سريع وحاد بسبب حرارة الطقس الشديدة.

فارتجفت أصابعها وهي تتمعن بمعاني كلماته:

ـ فهمت.

ـ لا تتوتري وتصبحي متباعدة هكذا آنسة واتيني... تصرفي على طبيعتك قليلاً. هذا كل ما أرغبه. فسيكون للسائق قصة طويلة يخبرها دون أن نزيد له المزيد. فلو كنت امرأته، لأخرجك من السيارة وضربك ضرباً مبرحاً حتى تتوسلي الرحمة.

ـ إذن لماذا لم تحاول أن تشرح له أنني لست امرأتك؟

فرد ببرود:

ـ لكنه لا يعرف هذا... فهؤلاء الناس سيفترضون بكل بساطة أنه بمرافقتك لي إلى الصحراء أصبحت ملكي. وأنا اخشى أن أكون مضطراً للتعويض عن خسارتي ماء الوجه بملاحقتك... وسأستمتع كثيراً خلال الساعتين القادمتين في التفكير بما سأفعل بهذا الشأن.

ارتجفت أصابعها وهي تبعدها عن الرباط، لكنها ذكرت نفسها ثانية أن عليها أن تأخذ كل ما يقوله هذا الرجل بجدية... فنظرت إلى الخارج وسألت:

ـ أين ستذهب بالضبط مسيو؟

ـ إلى الصحراء... سنسافر في السيارة إلى أقصى مدى، ثم سنستخدم الجياد، وإذا استخدمت بعض الاسماء ستتشوشين.

فقالت متجهمة.

ـ بمعنى أصح... لا تريدني أن أعرف.

وبدا الضجر عليه:

ـ لا نتيجة من معرفتك مدموزيل... فتحركاتي ليست غامضة.

www.elromancia.com

والمغرب بلد متعدد الألوان والأشكال مدموزيل. وأسراره لا تعرف بسهولة... وقد أحدد لك بسهولة مناطق مختلفة عندما نقترب منها، لكننا لن ندخل أي من البلدات الرئيسية.

لم يتوقفوا للغداء، بل قدم لها سيمون قليلاً من الماء، وبضع سندويشات من خبز يابس جاف، شارك مثلها مع السائق... بعد أن أكلت وجبتها، أصيبت بدوار حاد، سببه الحر، فتمددت في مقعدها وغطت في نوم عميق واستيقظت بعد ساعات لتلاحظ أن القافلة توقفت.

لا بد أنها نامت في حضنه، فقد كانت مستلقية بين ذراعيه، فهبّت جالسة، وقالت بغضب:

ـ لماذا لم توقظني قبل الآن؟

ـ لا داعي للعجلة... لقد نمت كالطفل... لأول مرة استمتع بقربك مني هكذا. قانعة باللجوء إلى ذراعي الكريهة، التي تمنت أن تحتويك إلى الأبد.

نزلت من العربة والإثارة تجري في دمها، ولشدة تعبها توقعت أن تكون هذه المحطة نهاية ترحالهم لهذا اليوم على الأقل، وظنت أنها ستشاهد ناساً أو على الأقل قرية صغيرة... لكنها لم تجد حولها سوى مجموعة من الجياد. فاستدارت إلى سيمون وقالت بحدة:

ـ أين سنذهب الآن؟

ـ أتعرفين ركوب الخيل مدموزيل؟

ودون تفكير بما إذا كانت الابنة الحقيقية للسيدة واتيني تركب الخيل أم لا هزت رأسها نافية:

ـ لا... وسأؤخرك في سفرك مسيو إذا أرغمتني على ركوب الجواد. خاصة في هذا الزي السخيف الذي ارتديه... لأنني بالطبع سأقع.

ـ كما ترغبين يا فتاة. إذا اخترت الركوب معي، فعلى الأقل لن

تهربي. وجوادي يحمل اثنين بكل سهولة.

دبَّ الرعب في جسدها وحاولت الثبات في الأرض:

ـ أرفض أن أذهب معك أبعد من هذا مسيو. أنت لست سوى مجرم، مستبد لا تطاق!

فاسودت عيناه وبدا أنه ضاق ذرعاً بالحديث:

ـ لغتك سيئة... ومن سيصدق أنك لم تأت معي راغبة للتفتيش عن شقيقك؟ كم مرة يجب أن أكرر هذا قبل أن تقتنعي؟

نظرة واحدة إلى جواد ضخم متجهاً نحوهما يقوده أحد البربر، أكدت لها أن تهديداته ليست فارغة... فاستدارت لتهرب كالمجنونة منه. وقبل أن تبتعد بضع خطوات أمسك بها، وحملها ليلقي بها فوق السرج المرتفع القوس، وركب بسرعة خلفها. واصدر أمراً حاداً للرجال المجتمعين حوله، فتحرك الجميع.

لو أنه يظن أنه أحرز النصر فسيكتشف خطأه! فلقد بدأت ديانا تقاومه مصممة أن تسبب له أكبر قدر من المشاكل حتى يضطر إلى تغيير رأيه... كما كان عليها أن تقاوم أمراً آخر معقداً لم تستطع فهمه. لم تهتم بالمشاعر التي أثارها فيها سيمون سان كلير... إلا أنها لم تدرك ماهية هذه المشاعر. ومن الأفضل أن تتجاهل ذلك التوتر الذي يسود بينهما كلما نظرت إليه! ضمت يديها بشكل قبضات ولكمته بهما إلى أن أمسك بها من المعصم بيد واحدة. وصاح بأعلى صوته:

ـ مدموزيل. ليس لدي قدرة على التحمل والجلد... إلا إذا كنت ترغبين في أن أضمك إلي جيداً... فاحرصي على أن تكون تصرفاتك لائقة.

ـ أبداً! لست أدري كيف تستطيع ضمي هكذا إليك، بعد إساءة جيري لك!

فضحك وهو لا يزال يمسك يديها.

- بطريقة ما، بدأت أحس أنني لا أعرفك مطلقاً، آنسة واتيني. وكأنك غريبة عني، علماً أنك غريبة.

- غريبة؟

- أجل مدموزيل... والأمر غريب، أنت تحولين بيني وبين أمور أكثر أهمية أود القيام بها... عندما أنظر إليك، أشعر أنها المرة الأولى التي أراك فيها... ربما إذا استطعت أن أروضك أيتها القطة المتوحشة الصغيرة، ستعلميني سر الشباب الخالد. أنا في الخامسة والثلاثين، ومع ذلك أشعر أن شبابي يتلاشى.

- ليس لدي أية أسرار... أنت تتكلم بحماقة... أيمكن أن تتعقل للحظات وتنزلني!

وهي تتلوى دون نجاح كان السرج القاسي وذراعاه الأكثر قساوة يسببان لها كدمات مؤلمة. وأحست بخفقات قلبه القوية تمتزج مع خفقات قلبها الضعيف وعلى أوراكها النحيلة أحست بضغط ساقيه... فاحست برغبة في الاستجابة تغمرها، فحاولت الابتعاد عنه، لكنه ضمها بحرارة إلى جسده.

تركت يده معصميها ليضعها على رقبتها ويجبرها على الالتفات نحوه. وقال لها:

- مرة كدت تتوسلين إلي لأضمك... وها أنا استجيب لتوسلاتك ولو متأخراً سنوات عشر. ما رأيك أن نعوض عما فاتنا؟

لم تجد القوة الكافية لازاحة نظرها عنه فهمست:

- أكرهك! أكرهك!

تركتها يداه للسيطرة على الجواد وحثه على السرعة، وعندما انطلق الجواد بخطوات سريعة قال:

- يمكنني الاستمتاع بصحبة امرأة دون الحاجة لأن تحبني مدموزيل. قلت لك هذا الصباح إنك ستعانين... وإذا تأكدت أن تهديدي ليس مجرد كلام، سيكون هذا كافياً لتجميد لسانك داخل

فمك مما يسهل علينا الاستمرار برحلتنا هذه.

أصبحت الدنيا مظلمة تقريباً عندما توقف الركب ثانية. وأدركت ديانا أن الظلام في هذه البلاد يحل فجأة... لكن نوراً خفيفاً من أثر النهار بقي... حتى الطبيعة تسعى لاسترضاء هذا الرجل. كان رجاله يسيرون وراءه وعدت منهم عشرة، ولم تدر ما إذا كان هؤلاء الرجال رهن إشارته وامرته نظراً لمركزه ورتبته، أم بسبب الرغبة الأزلية لدى البشر في اللحاق بقائد... فلقد عرفت، حتى في هذه المدة القصيرة، أن سيمون سان كلير رجل يتمتع بالقدرة على السلطة والاحترام. فبربر الصحراء هؤلاء، إذا كانوا من رجاله، ينادونه «سيدي» وبطريقة مميزة.

رفع سيمون ذراعه ليتوقفوا في حمى نجع صغير من النخيل، وهو يمسك بالجواد الضخم كي تتمكن من النزول. نظرت حولها بقلق، تحس بضعف غريب في أطرافها... كان سهلاً عليها الجلوس فوق الجواد، تمسك بها ذراعا آسرها. لكن تأثير التصاقها به لمدة طويلة لم تكن قادرة على تحمله.

- هل أنت بخير مدموزيل؟

فهزت رأسها بالايجاب دون أن تلتفت إليه. فقد أحست فجأة أنها تضيع جهدها في متابعة معركتها معه، وأن مقاومته مستحيلة في وضعهم الحالي.

كم من مرة مر في ذهنها أن تخبره حقيقة أمرها، لكنها لم تستطع... ثم... إذا حاولت أن تقول له، ألن يسخر منها؟ كما أنها تشك في أن يكون مصدر خطر عليها بأية طريقة... خاصة وأنه يفتش عن خطيبته ويتوقع أن يلقاها في أية لحظة.

أحد الرجال السمر جاء لديانا بقصعة ماء، فقال لها سيمون:

- هذا كل ما تبقى لدينا من ماء... هذه واحة، ولكنها جفت، لذلك يجب الاقتصاد بما لدينا إلى أن نصل المخيم في الغد.

ـ لم أكن اشتكي مسيو.

فهز رأسه واستدار عنها ليدعها تغتسل. لم تستطع الخلوة، فهم لم يقيموا خيمة لها. لكن هذا لم يزعجها... لا بل على العكس تماماً فهي شابة، يسري في عروقها دم المغامرة والمخاطرة. وهي تنظر إلى انعكاس صور البربر في وجه النار، وتشمّ رائحة الطعام الذي يطهى، أحست بإثارة غريبة في أعماقها، إحساس بالترقب لما قد يحدث، لكن عندما أوصلها هذا إلى الحذر، تابعت غسل وجهها.

قدم لها سيمون سان كلير العشاء بنفسه فأكلت كل ما في صحنها بنهم. فقال لها:

ـ يتمتع المرء بالطعام عندما يكون بعيداً عن المدينة مدموزيل.

ـ لكنك نسيت أنني لم أتناول طعاماً طوال اليوم.

وتساءلت في نفسها لماذا يناديها بالمدموزيل دائماً. متذكرة رأيه بابنة السيدة واتيني الحقيقية. وكلمة مدموزيل تبدو صغيرة، ساذجة، لتلك السيدة بالذات. وابتسم لها ساخرا:

ـ أنا لا أنتقد شهيتك وتقديرك للطعام اللذيذ... لكن أتمنى أن تكون لك نفس الشهية... لاشياء أخرى.

ما قصده لم تكن متأكدة منه، لكن كلماته ارجفتها خوفاً. فسألته بجسارة:

ـ هل تنام بملابسك مسيو؟

ـ لا مدموزيل... أنا لا أنام فيها وستكتشفين هذا بنفسك.

شهقت ديانا... هذه المرة المعنى لا يحتمل أي تأويل... فقد اشتدت عضلات وجهه وبدا في صوته نوع من التهديد. فجأة تمنت لو لم يكن طويلاً ومخيفاً. وأن لا يكون ذلك السيد المتسلط! كم أنه متعجرف شديد الكبرياء، لكن مهما حدث لا يجب أن يشعر بتوترها وخوفها. هزت كتفيها لتبدي عدم اكتراثها:

ـ من السهولة إطلاق التهديدات مسيو. لكن تنفيذها أمر آخر. قد

تبدو لك انكلترا بعيدة، لكنني أحذرك، لو حدث لي مكروه فستضطر لمواجهة نتائج قاسية.

ـ وهل تعتقدين أن هذا الكلام يخوفني يا فراشتي الصغيرة؟

لو لم تأكل كل ما في صحنها لرمته به! كل ما تستطيعه في مواجهته هو الدفاع عن نفسها وتأمل أن يهزم الكره البارز في عينيها كبرياءه وغروره.

ـ قد تبدو مستمتعاً الآن مسيو. لكنني أنا من سيضحك أخيراً! إنك تنسى أنني لست معتادة على حياة الصحراء. فلو انهرت بين يديك، وعلمت السلطات بأمري، فماذا ستفعل؟ وإذا أصبت بمرض ما فما فائدتي في التفتيش عن خطيبتك؟

ـ لا تشغلي نفسك مدموزيل بالتفكير الدائم بالانتقام... فأنت تضيعين وقتك ووقتي. لقد عشت طويلاً في هذه البلاد عزيزتي وتعلمت أن لا آبه لتهديدات امرأة... لأن تهديدها ضرب من هذيان.

ـ حقاً مسيو؟ لقد بدأت الآن أفهم لماذا هربت منك خطيبتك!

غضبه المفاجيء كان مخيفاً. فأمسك بذراعها ينوي أذيتها ونظرته تحرقها:

ـ أنت وقحة مدموزيل. وأنا أحذرك. ولصالحك. لن أتحمل منك المزيد. والآن تعالي... يجب أن تنامي، فربما تساعدك الراحة الجيدة على اخماد لذاعة لسانك، سلاطة لسانك هذه لا أذكرها فيك. ولا أذكر كذلك أنك كنت مصممة على مناداتي «مسيو».

قادها بعيداً عن النار حيث فرش سجادتين قرب كومة من السروج على الرمال. وقال:

ـ أخشى أن تكوني مضطرة لتحمل صحبتي.

كانا بعيدين عن الرجال. فنظرت إليه ببرود وقالت:

ـ أفضل أن أبقى لوحدي.

لكنه تجاهلها وأشار إلى سجادة على الأرض:

ـ استلقي هنا وغطي نفسك بهذه... بإمكاني القيام بحمايتك أيتها الغبية إضافة إلى أشياء أخرى.

فاستلقت، ورمى السجادة فوقها ساخراً:

ـ أنا سعيد لأنك بدأت تتعقلين.

واستلقى سيمون سان كلير على ظهره قربها، وسمعت تنهيدة قلة صبر تتبعها أخرى من القناعة المؤقتة. وتمدد محاولاً الاسترخاء بعد توتر النهار، واستدار دون أن يحاول ملامستها وأخذت تصغي إلى صوت تحركاته التي قادتها في النهاية إلى نوم عميق.

استيقظت لتجده يميل فوقها مستنداً على مرفقه، يتفرس بها. شعرها الذي انفلت من رباطه، كان منتشراً حول وجهها على الوسادة، لونه الذهبي الفضي يلمع تحت أشعة الشمس التي كانت تشرق لتوها... وجهها المحمر قليلاً من تأثير النوم الممتع تحت النجوم، كان يبدو ناعماً لا تشوبه شائبة.

ما إن فتحت عينيها الليلكيتين المائلتين إلى الرمادي لتجد وجهه لا يبعد سوى سنتمترات عن وجهها، حتى تلاشى إحساسها بالامتعاض والخوف. فشهقت «مسيو!» وضغطها الذعر إلى السجادة التي كانت مستلقية فوقها. لاحظت أنه لا يرتدي غطاء الرأس، فرأت شعره الأسود الكثيف المتموج، تموجاً قد لا يستطيع السيطرة عليه كما يسيطر على أي شيء آخر. وخفق قلبها بخفقات سريعة، كم هو رجل وسيم. وجهه قد يكون صادقا قاسيا قويا، ولكن ينطبع في الذاكرة بحيث لا يمكن نسيانه. وهمست: «أرجوك!».

ـ لا تنزعجي! عندما أرغب في مغازلتك، سأختار مكاناً أكثر شاعرية. كل ما في الأمر أن الفضول تملكني لأرى لون عينيك في أول نور للصباح. وما من نور يكشف الحقيقة أكثر من نور الصحراء.

اضطربت لما قاله... ودارت أفكارها في دوامة:

ـ عيناي؟

ـ نادراً ما رأيت عينين أجمل منهما مدموزيل... اللون الرمادي فيهما لا ينسى... وهذا ما يجعلني اتساءل كيف نسيتهما.

أحست بوخزة ارتعاش، رفضت أن تصدق أنها الغيرة. وتمتمت:

ـ لا بد أن عيني مشابهتين لعينين أسرتاك منذ ذلك التاريخ مسيو؟

هز رأسه وهو لا يزال يحملق فيها. عيناه اللتان ظنتهما سوداوان، لاحظت الآن أنهما زرقاوان قاتمتان، بلون كحلي. لكن عندما يغضب، أو تتحرك مشاعره، يتدرج لونهما ليصبح أسوداً. شيء من الخفة دفعها لتسأله:

ـ لا تقل لي إنك تنكر هذا سيمون سان كلير؟

الغضب كان جزاء جرأتها. فامتدت يده لتمسك خصلة ذهبية من شعرها وكأنه يريد معاقبتها، لكنه قال:

ـ لعينيك لون رمادي جميل مدموزيل... وفي المغرب، نجد تنوعاً في أنواع الألوان ما عدا هذا اللون؟ إنه يذكرني بلون المطر الذي نادراً ما يهطل في الصحراء. بشرتك خليط زهري وابيض، شعرك مثل غمامة ذهبية، وفمك يشابه برعم الوردة. جسدك الشهي ترك نومي مضطرباً طوال الليل. أترضي هذه الدقة في الوصف الغزلي شهيتك السهلة المنال، والتي تجعلك تتنقلين من حضن رجل إلى آخر؟

قسوة كلامه جعلتها تقفز جالسة وكأنها تلقت ضربة موجعة. التجاوب الذائب الذي أثاره في عينيها دون وعي منها تحول إلى غضب... مستعملة الوحشية كسلاح وحيد تملكه لترد له الضربة:

ـ ليس من الصعب معرفة سبب عدم استطاعتك المحافظة على خطيبتك مسيو! فالمرأة بحاجة إلى الحب والحنان، بقدر ما هي بحاجة إلى القوة... وأنت لا يمكن لك تقديم سوى الوحشية الخالية من المشاعر.

وتصاعد غضبه ليماثل غضبها ويزيد:

- لقد حذرتك مسبقاً بأنني لن أتحمل وقاحتك، وعندما يحين وقت دفع الثمن لما قلتيه، لا تتذمري... يا إلهي! لست أدري لماذا أزعج نفسي بالغضب منك! فأنت تذكريني بطفلة مدللة مفسودة بعنفك المستمر. أحياناً أجد صعوبة في تصديق أنك لست طفلة مفسودة.

دون أن تعرف أنها قد تثيره، مررت لسانها على شفتيها، فصاح من بين أسنانه وعيناه مثبتتان على وجهها:

- بحق القديسين... أنا أتطلع بشوق كي أروضك... منذ زمن بعيد كان يجب أن يكون لك «سيد» ربما كنت أحمقاً لرفضك منذ سنوات. لكنني أكرر غلطتي. في الواقع، وأنا أنظر إليك الآن، قد لا أجد صعوبة في التصديق بأنني سأكون أول رجل في حياتك.

فصاحت:

- لا يمكن لك أن تترك انتقامك يذهب بك إلى هذا الحد؟

فسألها بوقاحة:

- ولما لا؟ قد نتمكن من تسلية أنفسنا، علماً أن في عينيك نظرة ضياع معاكسة لسمعتك الشهيرة.

أخفضت ديانا نظرها إلى يديها المرتجفتين، أين الخلاص من هذا الوجه الخشن الخالي من الإحساس؟ وتمتمت:

- لو سمحت أن تتركني... أود تنظيف نفسي، وترتيب ثيابي قبل أن تجبرني على متابعة هذه الرحلة المجنونة.

- بكل تأكيد.

ووقف فجأة، لكن لهجته لم تكن لهجة اعتذار، وبانحناءة ساخرة من رأسه الأسود الشعر، تركها متجهاً نحو الرجال الذين بدأوا في التململ في أماكنهم.

ذلك النهار... عندما توقفوا فيما بعد لتناول وجبة طعام مقتصدة، وتقديم الماء للجياد... تابعوا سيرهم ليصلوا إلى مخيم

البربر الذي تحدث عنه سيمون سان كلير... وشعرت وهي تركب أمامه ملتصقة به على ظهر الجواد، بارتياح لوصولهم إلى مقصدهم. كما أحست أنها اكتفت من سخريته القاسية، بما يكفيها العمر كله.

كانت هذه واحة أكبر من التي توقفوا فيها ليلة أمس... ولدهشتها، لاحظت أن المخيم يعج بالخيم السوداء المنخفضة، وأن هناك نساءً يقمن فيها مع عدد من الرجال... وقادها إلى خيمة لا مثيل لكبرها ووسعها بين الخيم.

- سنبقى هنا لبضعة أيام... لذا أنصحك بتقبل الأمر مدموزيل. لدي الكثير من الأعمال، إضافة إلى عمل تجاري خاص بي... لذا حاولي أن تريحي نفسك... ولن أشعر بالذنب لحرمانك من صحبتي.

وأحست بالغضب والتصلب لدرجة البكاء، لكنها وجدت نفسها تنظر إلى الخيام من حولها بخشية ورعب... لقد قرأت الكثير عن حياة قبائل الصحراء، لكنها لم تكن تتصور أبداً أنها ستشاركهم حياتهم. مع ذلك لم تكن لتتصور أن هذه الخيمة بالذات تمثل مستوى معيشة الفرد الصحراوي العادي.

ونظر إليها سيمون بسخرية وقال ببرود:

- لا تنسي أن رجال القبائل في هذه المنطقة يعاملونني على أساس أنني زعيم وهذه الخيمة جاهزة دائماً لي عندما أزورهم.

- وهذا أمر لا يحدث كثيراً... بالطبع.

حاولت ديانا أن لا تنظر إلى المرأة التي كانت تفرش المفارش والأغطية والوسائد، فدفعها سيمون إلى الغرفة الأولى بعيداً عن الباب وأمر المرأة بالخروج.

- هناك آخرون غيري لهم سلطة كاملة يعيشون هنا... وأنا لا أدير لهم حياتهم، لكنني أساعدهم بأية وسيلة متاحة لي.

- بالمال... على ما أعتقد؟

فاسود وجهه المتفاخر:

- المال... مالي يا مدموزيل... حقق الكثير لهؤلاء الناس... أكثر مما كان يمكن أن أحققه ببقائي معهم طوال الوقت... والصحراء مثقلة بالمهام الصعبة، ومن الصعب أن تعيل أكثر من بضع خراف وماعز، مما يوفر الطعام. والبدوي لا يملك عادة ما يبيعه ليؤمن ما يوفر له شراء ما نعتبره نحن جزءاً من ضروريات الحياة اليومية. لذلك لا تكوني متسرعة بابداء سخريتك من رجال مثلي.

هزت كتفيها تكتم إحساساً بالخجل، مدعية عدم الاكتراث:

- لا يمكن أن تتوقع مني الاهتمام بما ستتركه ورائي في أقرب وقت ممكن. أما بالنسبة للعرفان بالجميل، لهذا آخر ما أحسه نحوك.

فقال ببرود:

- أنصحك أن لا تتفوهي بأمر سخيف. سأقدم لك خادمة، وعندما تشعرين بالراحة، وتأكلين على مائدتي، كوني حكيمة لتتذكري أنني أنا من قدم لك كل هذا.

- الأفضل أن أتضور جوعاً!

- ردي على هذا، قد يكون سجنك في خيمة وضيعة، ولدينا منها الكثير... لكن في حرمانك مدموزيل، سأحرم نفسي. لذا لن آبه بتصرفاتك الطفولية! سأتركك الآن، مع كلمة تحذير: إذا رفضت الاستحمام وتغيير ثيابك، سأهتم بالأمر شخصياً. قومي يتوقعون مني تأديب المرأة التي تتحداني... وإذا لم أفعل سأفقد ماء وجهي.

- وهل يعلمون السبب الحقيقي لوجودي هنا؟

فضحك:

- إنهم يفهمون أن لدي مشاكلي، وأنني أتيت بامرأة لتسليتي... ولن يرفع واحد منهم اصبعاً ليساعدك.

- إذن، سأضطر إلى مساعدة نفسي... أليس كذلك؟

- بطريقة ما، لا أتخيل أن تفعلي هذا، مدموزيل. أعرف أنك تخلصت من الكثير من المواقف الحرجة بابتسامتك الجميلة وبشرتك الناعمة، لكن للقدر عادة غريبة في الانتقام من الغشاشين... وخاصة مع من لا يعرف صالحه جيداً.

فتراجعت إلى الوراء:

- كلامك مهين في تهديده مسيو، لكنني لا أفهم عما تتحدث.

- بلى... تفهمين... لا بد أنك تحسين بمشاعر محددة بيننا مدموزيل. مع أنني لست واثقاً من ماهية هذه المشاعر، إلا أنني أنوي قضاء ساعات مثيرة للاهتمام لأكشفها... ولن أقبل أن ترفضي مني ما أعطيته بسخاء في الماضي لأناس آخرين.

فصاحت به وقد شحب وجهها لدرجة البياض:

- قلت لك إنك مخطىء... مخطىء تماماً.

- أنا لا اخطىء مطلقاً... مدموزيل.

- لقد اخطأت مع خطيبتك!

- ألا يمكن لك ترك هذا الأمر؟ ولن أطلب منك ثانية الابتعاد عن إثارة الموضوع!

فتصاعد غضبها وأعادت له نظرته القاسية:

- أنا لا أخاف بسهولة!

وأجاب ساخراً:

- لا... أنت لا تخافين بسهولة... أنت لست نفس الفتاة التي ركضت كالمجنونة ظناً منها أن الجمل سيعضها، ولست من خلت بهستيرية أن حرارة الشمس ستدمر لك بشرتك... ديانا الجديدة هذه تثير فضولي... وأنا بحاجة لاستكشف ذاتها الجديدة، لما تثيرينه في نفسي.

قبل أن ترد، تركها وغادر الخيمة.

بقلب مرتجف، حاولت ديانا التماسك. تتعجب من الإثارة

الغريبة التي جعلتها تحس أن عظامها أصبحت سائلاً... الغبي وحده يتجاهل الخطر الذي يحيط بها، فسيمون سان كلير رجل يمكنه تحريك مشاعر أية امرأة... وما هو باق من علاقاته الغرامية لا بد ينتشر في بلدان كثيرة، وادعائه أنه شيخ صحراوي، دور من أدوار كثيرة يلعبه في حياته. ولا تعتقد أن لمعرفته بأنها ليست ابنة السيدة واتيني فارق كبير لديه. وستضيع وقتها وجهدها في محاولة اقناعه.

ودخلت خيمة ديانا فتاة اسمها «زينة» لا تتكلم الانكليزية ولكنها ملمة بالقليل القليل من الفرنسية، فوجدت ديانا صعوبة في التفاهم معها، ولا بد أن سيمون أرسلها عن قصد، كي لا تتمكن من التفاهم معها أو طلب المساعدة. أحضرت لها زينة الماء، وأصرت ديانا أن تستحم بنفسها، فاكتفت الفتاة بمراقبتها. على الأقل ستؤكد زينة لسيمون أنها استحمت وأصبحت نظيفة. وهذا ما قد يجعل مزاجه ألطف، وأكثر تعقلاً!

●●●

٤ ـ سقوط في الهاوية

هبط الظلام قبل أن تنتهي ديانا من الاستحمام. وأخذت زينة تدلك أطرافها التعبة بزيوت عطرة... كانت يدا الفتاة الناعمتان تتمتعان بكفاءة عالية في مهنة التدليك... وبقي بينهما حاجز الكلام، ولكن زينة كانت تعرف واجباتها دون أن تأمرها ديانا بطلبات معينة، مما جعلها مندهشة لخبرتها... فهذا أمر قلما تجده في الصحراء. مما جعلها تدرك أن جميع الأعراق البشرية متصلة ببعضها البعض من حيث العادات وأساليب المعرفة. وتنهدت آسفة وزينة ترافقها إلى الغرفة الخارجية.

بعد ذهاب الفتاة. وقفت ديانا بارتباك تتطلع حولها. وعادت إلى طبيعتها المتوترة إذ هاجمها إحساس بالذعر المخيف. وعملت كل ما بوسعها لتبقي رعبها تحت سيطرتها الذاتية. وقد تمكنت جاهدة من استعادة رباطة جأشها عندما دخل عليها سيمون سان كلير.

لم تفهم ديانا لماذا ـ ونفسها مليئة بكراهيته ـ تسارع قلبها ينبض فرحاً لمجرد رؤيته. وأملت أن لا يكون قد لاحظ تسارع تنفسها. على الرغم من قساوة ذلك اليوم، فقد كان سيمون يتمتع بحيوية جسدية ظاهرة للعيان، وبقساوة جعلتها ترتجف.

انحنى لها انحناءة ساخرة، وألقى نظرة سريعة على وجهها الأبيض النقي، ليركزه طويلاً على شعرها الأشقر الطويل، الذي تركته مسترسلاً. وقال:

www.elromancia.com

ـ لا يبدو أنك قد سررت لرؤيتي... لكنني أرجو أن تكوني أفضل حالاً. على الأقل لتنضمي اليّ للعشاء؟

ـ أجل.

لكنها كانت تنظر إليه بعداء ظاهر، وفكرت مرتين أن تقول له إنها تفضل العشاء لوحدها... لكن غريزتها عودتها على الحذر من الخوض في أمور خطيرة. مع أنها لا تتحمل صحبته القاسية، فقد تمكنت من أن ترمقه بنظرة أخفت اسوأ ما في نفسها دون الكشف عن مدى إحساسها بالاضطراب من رجولته.

قدمت امرأة لهما الطعام مسرعة بالانسحاب، وخلال فترة تناولهما الطعام، دار حديث بينهما. قال لها:

ـ تصابين بالتشنج عندما أنظر إليك وكأنك فتاة عذراء... كيف تتمكنين من المحافظة على جو البراءة حولك؟

ـ ربما لأنني فعلاً بريئة مسيو!

فضحك بوقاحة:

ـ هيا الآن آنسة واتيني، لقد توقفت عن السذاجة منذ زمن بعيد!

ـ لكنك تدرجت لتصبح وقحاً مسيو. وهذا ليس تقدماً.

والتوى فمه:

ـ وأنت كذلك لست لطيفة عندما تنوين الوقاحة... كما أن لديك شجاعة يا عزيزتي، لكنني أعتقد أننا لو أردنا التقرب من بعضنا أكثر فعليك مناداتي بسيمون... كما كنت تناديني في الماضي البعيد.

ـ طلبت مني هذا الطلب مرات عدة.

ـ لكنني أرغب في سماعك تلفظين اسمي... الآن!

نعومة صوته لم تخف تصميمه فقالت:

ـ اوه... لا تكن سخيفاً.

ودون اكتراث بدأت متعمدة بتناول الطعام، مع أن طلبه أثارها وأصابها بفقدان الشهية. في ظروف أخرى يمكن لها مناداته سيمون

وبكل سرور، لكنها تخشى طبيعته، فالتقرب منه مخاطرة، خاصة في هذه الليلة. والأفضل أن تلتزم الانضباط كي لا تنجرف في تجربة إثارة رجل مثل سيمون سان كلير.

يبدو أنه لم يكن معتاداً على نعته «سخيفاً». فتلاشى مزاجه الناعم، وقال ببرود:

ـ لقد نسيت نفسك مدموزيل.

فردت ساخرة:

ـ وأنت نسيت روح المرح.

ـ قد استعيدها عندما أستعيد خطيبتي. وإذا كانت أخلاقي لا تعجبك، فلا تلومي سوى نفسك... وشقيقك!

لبضع دقائق، تناولا الطعام بصمت تام. ثم سألته بمرارة:

ـ وأنت تفكر بمشاكلك، ألا يمكنك توفير لحظة للتفكير بهموم الآخرين؟ ألم تفكر مطلقاً بمدى قلق السيدة واتيني عندما لا أعود؟

ـ ولماذا أفكر بهذا؟

ـ لم أصادف في حياتي إنساناً بهذه الأنانية. يا إلهي... أنت تهزم أي شيء بغيض!

ـ انتبهي لنفسك يا فتاة، أنا لم أضربك بعد، لكن رجال الصحراء يعرفون تماماً كيف يسحبون لساناً لاسعاً كالدبور.

ـ وهل هي جريمة أن أقول ما في ذهني؟

ـ أحياناً لا يكون هذا من الحكمة.

ـ ربما لا... وسأحاول في المستقبل أن أحتفظ بآرائي لنفسي. لكن هذا لا يعني أن أغيرها، وأتوقف عن التفكير.

فتنهد وهو يناولها فنجان قهوة:

ـ ليس من الضرورة أن تدلي برأيك، فأنا استطيع رؤيته في عينيك يا عزيزتي... والأمر عائد لي كي أغيره لك.

تناهت موسيقى عذبة عبر باب الخيمة. من مكان من المخيم

تعالت الأصوات المرتفعة الحادة للنساء وهن يغنين. هواء الليل كان دافئاً، والعتمة تعطي نعومة لطيفة، لتخفي عقم كثبان الرمل اللامتناهية، والتي قد يوحي منظرها أحياناً بصدمة خوف في نفس أقوى الناس...

بعد هذه الفترة القصيرة من الحياة في الصحراء بدأت ديانا تكتشف بنفسها كم لمشهد الغروب، ولليل الصحراء من السحر والجمال، حتى نهارها رغم حرارته المرتفعة يعطي المرء القدرة على التحمل. ولم تعلق على ملاحظته الأخيرة. ولكنها كانت تحس أن عينيه لم تتركاها أبداً، وبدا واضحاً أنه لا زال في حيرة من أمره حول تساؤلاته الملحة كيف أن السنوات لم تترك آثارها على وجهها الجميل، لكنها كذلك تعلم أن لا فائدة من إضاعة الوقت في هذا الأمر.

بعد الانتهاء من شرب القهوة، أقفل باب الخيمة. فلمعت جمرات الفحم في الموقد، ولم يكن هناك سوى مصباح زيتي ينير الخيمة، التي بدت دافئة حميمة. فوقفت ديانا على الفور لتقول:

ـ استميحك عذراً، أود النوم باكراً.

ـ لماذا؟

ـ لأنني تعبة.

ـ لم تفعلي شيئاً سوى الجلوس على قربوص السرج أمامي طوال النهار، تتلاعبين بأعصابي، وتقولين لي إنك تعبة؟ أتتوقعين مني أن أصدقك؟

وتقدم منها بسرعة، ليمسكها بين ذراعيه، ولأنها لم تكن تتوقع هذا أجفلت وقالت متوترة:

ـ أرجوك... اتركني فوراً مسيو!

ـ لا... قد أفعل هذا فيما بعد. لكن شيئاً ما فيك يردعني عن فعل ما يسيء الآن. فابقي ساكنة مدموزيل، لاستمتع بتفحصك كي

أرضي فضولي.

أغمضت عينيها تحس بلسعات تحرقها وكأنها ألسنة النار... ولم يبتعد عنها إلا بعد أن بدأت حقاً بالارتجاف. وقال لها بصوت متصلب أجش:

ـ كل هذا الارتجاف مدموزيل ونحن لم نبدأ بعد، خاصة وأنك امرأة مجربة؟ أنا مندهش حقاً.

وحاولت استعادة رباطة جأشها التي تسمح لها بمجابهة غروره وكبريائه. لتقول همساً:

ـ أيها الوحش! سأجعلك تدفع الثمن!

ـ هس!

وكأنه يهدىء مهرة صغيرة، أمسكها وشدها إليه بينما كانت تدفعه عنها، وامتدت يده لتزيل الشعر الكثيف عن وجهها الحار، وأحنى شفتيه إلى أذنيها:

ـ ربما أنا خشن معك قليلاً يا عزيزتي.

وقبّل طرف خدها بلطف ونعومة ليظهر أنه يمكن أن يكون أقل خشونة. ثم أخذ يداعبها محاولاً تهدئتها...

ـ تعالي معي!

وبسرعة أخذها بين ذراعيه ليحملها إلى غرفتها، ثم ينزلها فوق الفراش المغطى باغطية الساتان اللماع الناعم. وجلس بقربها ملتصقاً بها:

ـ سألعب اللعبة على طريقتك، إذا كان هذا يرضيك. فلست مستعجلاً، ولو استغرق هذا ليلة أم اسبوعاً، فجسدك عليه الإحساس أنه ملكي. حتى ولو كان قلبك يرفض الاعتراف بذلك.

ـ وخطيبتك؟

رأسها كان يدور، وهي تدرك أن عليها التمسك بأي سلاح تجده، وأن عليها أن تجد أية وسيلة لمقاومة مطالبه... لكنه

ضحك... وكأنه لم يعد يفكر بأية فتاة سواها... وبدأت عظامها تذوب، ولم تعد قادرة على منعه. وقال لها بصوت عميق مخملي ويده تمتد لتلامسها:

ـ أنت جميلة يا عزيزتي!

وتحركت يداه حول جسدها، لتثيرا فيها مشاعراً لم تعرفها من قبل. فتعلقت به متأوهة وسمعت أنفاسه تتسارع، وبدلاً من أن تقاومه، وجدت نفسها تتعلق به، والنار تشتعل فيها مجدداً... وكانت أبعد من أن تسمع، وأبعد من أن تهتم... فهي ترغب وبإلحاح مدمر أن تعرف، إلى أين المصير... ومتى ستقع في الهاوية؟

صياح مجنون في الخارج لم يسمعاه في البداية، عندما اقترب من خيمتهما، وازداد ضجيجاً وحجماً، رن في أذنيه، فتركها. وهو يبتعد عنها، تغير وجهه الأسمر غضباً وأخذ يتمتم بنفاذ صبر:

ـ يا إلهي... سيدفع أحدهم ثمن هذا!

بوجنتين ملتهبتين، كافحت لتصل حافة الديوان... وهي تحس بإذلال غريب يجتاحها. بدا لها واضحاً أنه لم يكن جاداً في مغازلته لها، بل كان يسلي نفسه، ليرى إلى أي مدى هي مستعدة للتجاوب معه.

بعد لحظات، رفعت رأسها لتنظر إلى جدران الخيمة، تتمنى لو تجرؤ على عصيان أوامره بعدم مغادرتها... وسمعت صوته... نبراته العميقة فيها الكثير من التسلط دون مجال للخطأ. ثم، بعد أن دوت أصوات أخرى ساد الصمت. رجل واحد استمر في الكلام... حتى صوت هذا الرجل تلاشى وهو يبتعد. كأنما هناك مجرم ملاحق. ثم عاد الصمت الذي هو جزء لا يتجزأ من سحر الصحراء.

رمت ديانا بنفسها بين الوسائد تنتظر رجوع سيمون... ومر وقت طويل قبل أن تقتنع أنه لن يأتي. لا بد أنه دُعي لتسوية خلاف بين

القوم سبَّب تلك الجلبة... لذلك قد يغيب ساعات.

وغطت في النوم... لتستيقظ عند الفجر وتجد زينة تقف قرب فراشها... وبدت الفتاة مذهولة من نوم ديانا بثيابها الكاملة. فأمسكت غلالة نوم بين يديها تشير بها إليها وتضحك. فابتسمت ديانا وهي تعيد خصلات شعرها عن وجهها... تساءلت عما جرى ليلة أمس وسارعت لمغادرة الفراش، وقلبها يخفق لما تتوقع أن تسمعه من سيمون... ماذا سيجلب لها هذا اليوم؟ هل سيكون الآن أكثر استعداداً للاستماع إلى شرحها، الذي لم يسمح لها من قبل أن تقوله؟ رجل مثل سيمون لا يمكن أن يصدر عنه سوى عناق بسيط وبضع مداعبات لا تغني عن شيء. ومع علمها المرير بهذا، لم تستطع منع نفسها من التمسك بالأمل.

قبل أن تتاح لها فرصة للاستحمام وتغيير ثيابها، دخل سيمون دون إذن مسبق إلى خيمتها، يرتدي قميصاً أسوداً، وسروالاً فضفاضاً... وبدا لها أكثر وسامة من قبل. وبدا مرتاحاً وكأنه أمضى ليلته، على عكسها، في مكان مريح...

وبدا عليها الاستياء لدخوله هكذا، فأحنى رأسه:

ـ أعتذر يا عزيزتي، لكن هذه خيمتي. ربما عليك وضع إعلان عند الباب عن الحالة التي أنت فيها وعما تفعلينه. عندها سأحكم ما إذا كان من الأمان أن أدخل أم لا.

ـ قد تعجبك فكاهاتك. لكنها لا تعجبني.

وأشار لزينة بالذهاب وتابع ساخراً:

ـ آه عزيزتي... اقسم أن لك روحاً مرحة. فعندما ضممتك...

قاطعته بحدة، متمسكة بعدوانيتها:

ـ أيمكن أن تخبرني ماذا جرى بالأمس؟ لم يكن من اللباقة أن تتركني محتارة حينها. ظننت أن قبيلة أخرى استولت على المخيم... قد تضحك لهذه الفكرة مسيو... لكننا في الغرب نسمع

الكثير عن ما هو اسوأ من الذي يجري هنا!

ـ أهذا ما أبقاك ساهرة؟

ـ وماذا يمكن أن يكون غيره؟

فجأة قطع المسافة بينهما، وامتدت ذراعاه لتجذبانها إليه، ووضع يده تحت ذقنها لينظر في وجهها:

ـ أظن مدموزيل أن إظهار الغضب هذا يخفي وراءه أكثر من الخوف! خوفٌ لم يُسببه ذلك الوحش الضاري الذي تسلل إلى واحتنا السوداء في الليل وافترس البدوي.

التعاطف السريع كان سبباً في نسيانها مشاكلها فصاحت:

ـ يا للرجل المسكين! ماذا فعلت له؟ آمل، أنك كنت لطيفاً معه؟

ـ لدينا طرقنا الخاصة في التعامل مع أزمات كهذه. وربما أنا ممتن لوجود شيء يشغلني. اؤكد لك أننا عملنا ما بوسعنا، ولكن الرجل مات.

ـ هكذا إذن... أعتقد أن لديكم أطباء؟

ـ من الأفضل... عندما يتواجدون. لكن، ليلة أمس ما من طبيب كان يمكنه المساعدة.

وحرك يده قليلاً ليداعب اذنها، وقال ممازحاً:

ـ هل خاب أملك عندما لم أعد أمس، يا عزيزتي؟

فجأة أحست بقربه منها، وأن عضلات جسده القاسية تضغط عليها. تمنت أن لا يحس بضربات قلبها، فأجابت بحدة:

ـ لا! أتسمح بالتوقف عن استغلالي وكأنني امرأة التقطتها من الشارع.

رد ساخراً، مسيطراً على مقاومتها دون جهد:

ـ أنت توحين لي بأفكار جيدة.

أخذ ينظر إليها بوقاحة جعلت الدماء ترتفع إلى وجهها، لكن عندما بدأت الاحتجاج، شد رأسها إلى صدره لتختنق كلماتها. ثم مد

يده بينهما ليضعها قرب قلبها يتحسس ضربات قلبها المتسارعة... وسألها بسخرية:

ـ أهذا كله بسببي... أم بسبب الغضب؟

فصاحت وشفتيها ترتجفان:

ـ اتركني!

وبجهد يفوق قدرتها العادية انفلتت منه وأكملت:

ـ أنت تسلي نفسك على حسابي!

فجذبها من جديد نحوه:

ـ لست في وضع يمكنك فيه التذمر.

ـ أنت... أنت لا تطاق مسيو! أنت شيطان خبيث، مجنون، وغد...! لا عجب أن...

فقاطعها ببرود:

ـ الأفضل أن تصمتي... لو كررت هذا ثانية، فسأطبق كل ما ذكرتيه عني... ولا تحاولي الادّعاء أنك لست مهتمة بي، فلن أصدقك! وكما قلت لك من قبل، لماذا لا أمتع نفسي بما تمتع به غيري من قبل؟

ـ لا... مسيو...

ـ ليلة أمس لم تجدي صعوبة في مناداتي باسمي، مع أنني لا آبه لما تناديني به، لكنه كان تغييراً ملحوظاً، كما أنني وجدت أن تجاوبك الحار، كان أقل توتراً من تأكيداتك المستمرة بأنك لم تعرفي رجلاً من قبل.

حاولت اخفاء ضعفها وارتجافها بالغضب:

ـ أنا لم أتجاوب معك مسيو! لكن ثقتك العمياء بنفسك اخفت عنك الحقيقة، حتى أنك لم تلاحظ أنني كنت أحاول الخلاص منك.

لم يحاول اخفاء سخريته، وصاح:

ـ لو أن لدي وقت أطول اليوم، لكنت برهنت لك مدى كذب

كلماتك آنسة واتيني. فأنت لست بالعانس المحافظة يا عزيزتي. لكن ربما لم يكلف رجل نفسه من قبل بإقناعك. لكنني هذا الصباح غير قادر على تغيير خططي واتطلع شوقاً لرؤيتك مساءً، وقبل انقضائه، أعدك بأنك ستنادينني باسم يختلف عن «مسيو» وعن أي اسم استخدمته ضدي بكل حرية.

فهمست، متراجعة بخوف عنه وعن عينيه الباردتين:

ـ لست أفهمك.

وبدا قاسياً متجهماً، يستعد للخروج:

ـ لا ضرورة لتفهمي... كوني مستعدة لاستقبالي عندما أعود... وهذا كل شيء.

مع ذهاب سيمون، لم تجد ديانا نفسها محبوسة في الخيمة. فارتاحت للأمر. فأمضت الصباح تتجول في المخيم... يبدو أن معظم الرجال خرجوا مع سيمون، ولم يبق سوى النساء، معظمهن محجبات، يسارعن في حركتهن لاداء أعمالهن اليومية... كن مشغولات جداً ليلاحظن الفتاة الشقراء الصغيرة المتجولة في وسطهن. لكن، من فوق حجابهن الأسود، كانت عيونهن تلمع باللطف، وبعض الفضول.

المرأة التي قدمت لهما عشاء الأمس، لم تفارقها لحظة ولم تستطع ديانا معرفة ما إذا كانت ملازمتها لها تنفيذاً لأوامر سيمون أم لا... لكن عندما حاولت الحصول منها على معلومات وجدت أنها إما لم تكن تعرف شيئاً أو أن لديها تعليمات صارمة بالسكوت التام.

لم يكن في الواحة الكثير تتفرج عليه، ولا ما يشغل بالها عن موقفها التعيس... لطالما حلمت بالسفر، لكنها لن تجد سعادة في رؤية العالم كما هي مضطرة لتراه الآن... وشبح الكارثة يحوم فوق رأسها مهدداً. لكن لكونها سجينة رجل كل هاجسه الرغبة في الانتقام، وجدت صعوبة في الراحة... حتى ولو لدقائق.

كانت ديانا واثقة أن سيمون يملك وسيلة اتصال لإدارة أعماله في المدينة. لكن، من الواضح أنها لن تعرف عنها شيئاً. مدعية اهتماما لم تكن تحس به، عادت ثانية للتجوال في الواحة. لكنها لم تجد أي شيء يمكن أن يساعدها ولو من بعيد... فأيقنت أنها لا تملك أية وسيلة للخلاص من سيمون سان كلير، ومحاولة الهرب في الصحراء، أمرٌ يوازي إقدامها على الانتحار.

كان الوقت متأخراً عندما عاد سيمون ذلك المساء، لدرجة أنها بدأت تقلق وهي تنتظره. كانت قد استحمت وغيرت ملابسها، ليس لرغبتها في ارضائه، لكن لأن الملابس، حتى مع الحذر الشديد، تصبح مليئة بالغبار والعرق في هذا المكان. هذا المساء ارتدت سروالاً حريرياً أزرق اللون مع بلوزة مناسبة طرزت بالفضة وزينت باللؤلؤ... وقدمت لها زينة رباطاً مناسباً تربط به شعرها، مما تسبب ببرودة لذيذة عند مؤخرة رقبتها.

عندما وصل سيمون لم تندهش لوصوله، لأنها سمعت وقع حوافر الجياد تقترب من الخيمة، إضافة إلى صلصلة الألجمة وأصوات الرجال، مما يشير إلى أنهم جاءوا من البعيد، وأملت أن يكون سيمون تعباً ويبتعد عنها هذه الليلة... ولسماعها صوته الآمر، لم تفاجأ بدخول خادم يحمل له الماء.

ـ مساء الخير آنسة واتيني.

نظرة سريعة إلى جمالها الآخاذ، جعلته يتوقف معجباً:

ـ أرى أنك تنتظرين... العشاء. أمهليني عشر دقائق لأنظف نفسي.

بابتسامة عريضة لاحمرار وجهها، اختفى خلف ستارة من الستائر التي تقسم الخيمة إلى غرف. وامتلأت أذناها بصوت الماء المنسكب، وحفيف المناشف، وأصوات تصدر عن رجل يحاول إزالة آثار يوم مضني عن جسده. وهكذا كان جاهزاً في أقل من الدقائق

التي استمهلها، وعندما انضم إليها لم يكن يظهر عليه اكتئاب لضياع خطيبته.

- هل وجدتها مسيو؟

أدركت أن سؤالها سخيف، فلو أنه وجدها لكانت الآن معه، ودون أن تعرف السبب أحست بالراحة. ورد عليها:

- وهل يبدو لك هذا؟

فابتلعت غصة غريبة في حلقها:

- كنت اتساءل فقط.

- لا... سبحان الله... كنت صائماً طوال اليوم يا عزيزتي... وأنا جائع... جائع جداً!

عيناه تركزتا على شفتيها، فأصابها ذعر لم تستطع السيطرة عليه، لأنه لم يكن يفكر بالطعام... بعد تقديم الطعام انسحب الخدم بهدوء، وفكرت ديانا بالخراف التي شاهدتها في جولتها اليوم، ونظرت إلى اللحم المطبوخ أمامها... ففقدت شهيتها للطعام.

- ألن تأكلي... اللحم طعام فخم هنا. ولسوف تغضبين قومي كثيراً إذا رفضت تناول ما عانوا كثيراً لتحضيره.

حاولت أن تشرح له:

- الأمر أني شاهدت هذا الصباح حملاناً صغاراً مربوطة استعداداً للذبح... مسيو.

- ولم تستطيعي نسيانها. اتجدين هذا أمراً مختلفاً عما يجري في بلادك؟ قد لا تجدين فرقاً بين الحملان الجميلة التي ترتع بين العشب الأخضر في الحقول وبين الذبائح المعلقة عند اللحام. قد تجدين الحياة هنا بدائية، ولكن ما الفائدة من وجود دكان لحام لهؤلاء الناس، فهُم يبتعدون مئات الكيلومترات عن أقرب لحام، ثم كيف يمكن لهم حفظ اللحم من الفساد في حرارة محرقة كهذه، إلا إذا استبقوها حية إلى حين الحاجة.

- لم أكن اقصد الانتقاد.

- الجهل هو سبب انتقاد الغرباء لهذه البلاد، ولأي بلاد أخرى. لكن يا عزيزتي اللحم من الكماليات المكلفة بالنسبة لبدوي عادي، ونادراً ما يستطيع تحمل تكاليفه... عادة يعيش على التمر والرز والحنطة والذرة... وهذا نوع من الحمية لا يتحمله الكثير من الأوربيين.

- لكن هناك المغاربة الأثرياء... وعرب الشرق الأوسط، أليسوا أفضل حالاً؟

- أفضل بكثير... والشرق الأوسط مليء بالفقر والحاجة. والحكومات تحاول دائماً رفع مستوى المعيشة، لكن قلة انتاج الأراضي الزراعية لا تساعد على دعم الاقتصاد وجعله سليماً.

- سمعت بمشروعات ري للصحراء؟

فتنهد سيمون:

- لدينا الكثير منها لكنها تتطلب الكفاح الدائم ضد تفوق الطبيعة... ومعظم قبائل الصحراء رحّالة بالفطرة ولا ترغب في الاستقرار في مكان واحد.

فقطبت ديانا:

- إذا كانوا يتمتعون بنمط حياتهم الحالي... فلم يغيرونها؟

فابتسم ساخراً:

- أنت من تدافعين عن التغيير وليس أنا. كدت تبكين حزناً على عشائك. وأعتقد أنك بحاجة إلى قلب أقسى من قلبك.

وجدت نفسها تبتسم، ولو بحزن:

- أجل... بعيداً عن منظر الخراف هناك الكثير مما يثير فضولي. فعندما كنت في الخارج صباح اليوم، راقبت الناس باهتمام. قد يكونون فقراء، ومحرومين، لكنهم دائماً يبتسمون. عيونهم لطيفة، قانعون بما لديهم. ولا أصدق أن السبب هو الجهل.

www.elromancia.com

- يبدو أنك راقبتهم عن كثب.

- أظن أن لديهم أولاداً كثيرين... مع ذلك فالأمهات مليئات بالمحبة والصبر، ولقد خصصني ببعض من محبتهن، وأنا الغريبة.

- أنت امرأتي... هذا وحده يكفي للترحاب بك... فهم يتوقعون رؤية أولادنا فيما بعد.

احترق وجهها خجلاً... وعادت عدائيتها، ونسيت لحظة التقارب بينهما... لكنها بطريقة ما كانت سعيدة لغضبها لأنه وضع حداً سريعاً للدفء الشاذ الذي بدأت تحس به نحوه. فقالت بحدة:

- أعتقد انهم إذا كانوا يظنونني من املاكك، فلا يسعهم سوى الترحيب بي!

- لو كنت مكانك لما علقت أهمية كبرى على هذا. فبعد بضعة أيام ستترك المكان، وسينسونك بسهولة، كما ينسون الريح التي تهب في لحظة ثم تختفي.

- إذن، أنت لا تنوي البقاء هنا؟

- أقيم فقط قدر ما أحتاج...

- ما تحتاجه لتجد جيري وخطيبتك؟

فرد ببرود:

- لا... قدر ما أحتاج لأعلمك درساً آنسة واتيني.

- أي نوع من الدروس مسيو؟

للحظات استمر ينظر إليها... وأمام ارتياحها تهللت أساريره:

- اوه... لا شيء عنيف. لا شيء لن تستمتعي به... فأنا أنوي ابقاؤك هنا مدة تكفي لدب الذعر في أوصال أفراد عائلتك. وكما قلت لن ينجو أحد منكم من الانتقام.

فتنهدت ديانا... لا يبدو هذا غريباً... نباحه اسوأ من عضته... كما يقال، وكما أكثر الناس... فتهديداته لا تعني سوى التخويف. ولم تعد تشعر بضرورة التأثير عليه بهويتها الحقيقية.

فاستخدمت ما عرفته لتسأله عن شيء كان يقلقها.

- ما الذي دفع جيري للهرب مع خطيبتك مسيو؟

على الفور ندمت على تدخلها في أموره الخاصة. فقد تلبد وجهه... لكنه لم يرفض الرد:

- كان يمكن لي أن أغفر له مدموزيل لو أنني مقتنع أنه يحبها. لكنني واثق أنه لا يحبها... لسنوات كان يكافح جاهداً لاثبات تفوقه علي دون فائدة... وربما وجد هذا الأسلوب آخر فرصة له... فلعب على مشاعر امرأة تحس بالضجر، إلى أن وافقت معه على أي شيء.

فقطبت ديانا، وصاحت دون تفكير:

- كيف يمكن لها أن تضجر مسيو؟

فضحك بوحشية وعيناه لا تغادران وجهها المذهول:

- تبدين وكأنك تجدين هذا أمرا صعب التصديق... لكنك حتى الآن لم تضجري وأنت معي... حتى خلال تعارفنا القصير... لقد مضى زمن طويل على تعارفنا، لكنني لم أنسى كم رغبت بي. وأنوي الآن أن أعرف ما إذا كنت لا زلت ترغبين بي... تعالي إلى هنا يا فتاتي اللطيفة.

●●●

www.elromancia.com

٥ ـ الورقة الأخيرة

لم تكن ديانا مستعدة لإطاعة نزواته وأوامره، وأدرك سيمون نيتها في التحدي، وفيما هما يجلسان على ديوان منخفض مال إليها وجذبها نحوه. قائلاً ببرود:

ـ أظن أنني أعرف ما يكفي عن رغبات النساء، ولن أخيب أملك.

فصاحت وهي تحاول أن تجد القوة لاقناعه بالتعقل:

ـ لا سيمون! أرجوك! لأجل السماء! أليس من الأفضل أن أتركك لوحدك؟ يمكنك أن ترتاح طوال الليل. فنحن دائماً نتخاصم، وقد لا تجد هذا مريحاً.

ـ ليس لي الرغبة في أن أبقى لوحدي يا عزيزتي.

لمعت عيناه واشتدت قبضته عليها، فطغى الرعب على رباطة الجأش الذي حاولت استرداده، فقفزت بسرعة، تهرب منه، على حين غرة منه. لكنها لم تستطع الابتعاد أكثر من ثلاث خطوات عندما قبض عليها من جديد.

وبوحشية أحاطها بذراعيه، يرفعها عن الأرض، وبغض النظر عن الشهقة التي كادت تخنقها ضمها إليه بقوة، تعبيراً عن رغبته في الانتقام.

وبيأس، كما حصل معها سابقاً، حاولت مقاومته، لكنها ضعفت بعد أن تلاشى تفكيرها وأصابها دوران في رأسها. كان ضعفها هذا

يوازي استسلامها له بسبب قبضته الحديدية التي تطبق على جسدها النحيل. وعلى الرغم من ذلك، تمكنت من ضربه بقبضاتها الصغيرة إلى أن قبض على ذراعيها.

عندما لجأت إلى ركله، التقطها عن الأرض ببساطة ليحبس أطرافها المتطايرة في الهواء بجسده القوي. وضغط باصابعه عليها بقساوة:

ـ توقفي عن هذا! لقد سئمت تصرفاتك، وهذا الادعاء بالبراءة!

فشهقت:

ـ أنت أقوى مني، لكنك لن تتمكن من منعي عن قول ما أفكر به... قد لا تصدق ما أقول، فأنت معتدّ بنفسك... لكنني بكل تأكيد لست راغبة بك... كحبيب!

التوت أطراف فمه بازدراء:

ـ إذن أنت تهدفين إلى ما هو أسمى... زوج مثلاً؟ أتتوقعين أن أتزوجك حبيبتي؟

ـ لا أتوقع شيئاً منك. كل ما أريده أن تدعني وشأني!

فقال بخشونة مفاجئة:

ـ قبل أن تبدأي بتنظيم أفكارك يا فتاة، عليك السيطرة على ردات فعل جسدك، الذي اعتاد على التجاوب معي.

فصاحت به:

ـ أنت مجنون!

ـ بل قولي كلانا مجنون!

وشعرت بحمّى مخيفة، لإحساسها بالتجاوب الذي فشلت في السيطرة عليه... والتهبت أنفاسها بنار الشوق إليه، وتلاشت الدنيا أمام عينيها، ويداه تشدانها إليه، ولم تعد تستطيع الحراك. وسرعان ما فقدت إرادتها، فأغمضت عينيها، وتراخت. وأفلتت منها آهة قبل أن ترفع ذراعيها لتتعلق بكتفيه. فتمتم بصوت أجش:

ـ ديانا! كم أنت جميلة! يبدو أنني لا أذكرك جيداً! لا بد أنني كنت غبياً... لكن بحق الله توقفي عن التلاعب بي.

أحست ديانا أنها لم تفهم ما يعني... واعترتها رجفة ناعمة محببة فهي تتعرف وللمرة الأولى في حياتها إلى معنى أن ترغب في رجل... وتحول الارتعاش إلى ألم لم تستطع أن تتحمله ووجدت صعوبة في تجاهله... فجأة لم تعد قادرة على مقاومته. وسمعته يقول بصوت متحشرج:

ـ الليلة ستكونين لي... دون أن يقاطعنا أحد.

وكأنما سقطت عليها ضربة صدمتها فجأة... لو أنه لم يقل شيئاً لشكت في قدرتها على معاودة مقاومته... لكن الالتزام الكامل الذي تحدث عنه، بدا متنافراً مع البراءة في أعماقها، مما جعلها تخجل، حتى وأحاسيسها تطالب بالعكس... فتوسلت إليه بضعف:

ـ لا... لا يا سيمون... ليس هكذا.

رد عليها بحدة وعجرفة:

ـ لن أعيدك إلى انكلترا قبل أن تتنازلي تماماً يا عزيزتي وهذه ستكون فضيحة لن تحلم بها والدتك.

فظاعة ما قاله لم يخترق تفكيرها فوراً. ثم صعقها الذعر، فهربت منه... مع ذلك لم تستطع للحظات أن تصدق بأنه يعني ما يقول. وصاحت به وقد ابيض وجهها:

ـ لا أصدق أنك تعني ما تقول!

ـ ألا تظنين هذا؟

فهمست... تكاد يغمى عليها:

ـ أنت مجنون!

وقف يراقبها تترنح ببرود... ثم قال:

ـ ما من امرأة تستطيع دفعي إلى الجنون يا صغيرتي. لكنني أعتقد أنني قادر على دفعك أنت إلى الجنون.

ـ ارفض أن أسمح لك بلمسي!

تراجعت عنه بوحشية، مصعوقة بما عرفته من نواياه. لكنه ابتسم لهستيريتها ولحق بتراجعها... ليتوقف على بعد سنتمترات منها.

ـ لا تقلقي يا عزيزتي... لست أنوي فرض نفسي عليك... ليس بعد. لقد سئمت فجأة من كل هذه المقاومة... فأنت لم تكوني تقاومين عندما رأيتك بين ذراعي مولاي بن الحسين، وهذا ما يبرهن أن بالإمكان شراءك إذا لم يتمكن المرء من اقناعك... أليس كذلك؟ لكنني لن أفعل أياً من الحالتين... سأنتظر بكل بساطة إلى أن تتوسلي إلي. وهذا لن يطول أمره، إذا أخذنا بعين الاعتبار التجاوب الذي أبديتيه منذ قليل.

حدقت به ديانا ووجهها شاحب، ويداها ترتجفان لكنه مد يده ليمسك ذقنها:

ـ كم أنت ممثلة رائعة يا ديانا! لقد تمكنت وأنت في الثلاثين أن تظهري كابنة ستة عشر سنة. وها أنت تحاولين تحويل نفسك إلى عذراء مقنعة. أعترف أنني أحياناً أجد صعوبة في التصديق بأن لك شخصيتين، مثلك مثل أخيك. لكن الوقائع لا تكذب.

حاولت ديانا أن تتكلم ففشلت... أحست برغبة في البكاء لكن الدموع لم تستجب. أرادت أن تضربه لما قاله لها من كلام مريع، إلا أنها أحست برغبة لتقول له إنها تفهم سبب ازدرائه وإنها تسامحه، لأنها ليست الفتاة التي يظنها.

تلاشى بعض التجهم عن وجهه وهو ينظر إليها:

ـ اذهبي إلى فراشك آنسة واتيني. ولا تدعي الماضي يقض مضجعك. وكما قلت لك، لدي صبر طويل... كما أنك لست ذاهبة بعيداً عني مدموزيل.

وذهبت إلى الفراش، لكنها لم تستطع النوم... في الظلمة لاحقها الشك الرهيب في أنها لن تستطيع الخروج من المغرب

سالمة. لم تكن واثقة مما تشعر به تجاه سيمون سان كلير... إنه جميل المحيا يثير اعجاب أية امرأة... هذا متحداً مع ثقته الباردة المتعجرفة بنفسه، يعطيه ميزة لا يستطيع مقاومتها سوى القليل القليل... لكن أن تتصور نفسها تحبه... أمر مجنون! ما تعانيه ليس أكثر من افتتان مراهقة... سببه لها الجو الرومانسي الذي تتميز به الصحراء.

في الصباح الباكر أحست برغبة في ترك فراشها، فتسللت خارجة مع الفجر. لم تعرف كم الساعة، لكنها أحست أن الصباح قد انبلج منذ مدة، ففي الجو لا تزال النضارة مستمرة.

بعيداً عن الخيمة ضمت عباءتها حولها وهي تبتعد عن الواحة... اما أن يكون سيمون لم يستيقظ بعد، أو أنه مشغول في مكان ما... وأحست بالامتنان لتمكنها من الاختلاء بنفسها لبضع دقائق.

لو أنها كنت ساعتها تصغي، لربما سمعت شيئاً يقترب لكنها فوجئت بظهور طائرة هليكوبتر أمامها تماماً فوق كثيب من الرمال. بعد أن مرت مباشرة من فوق رأسها حطت على منبسط من الأرض على بعد مئتي متر منها. على الفور، ودون تفكير. ركضت نحوها، فقد تكون وسيلة خلاص قد لا تتاح لها ثانية.

لسوء حظها... وصل سيمون قبلها... يخطو فوق الرمال ووجهه كالعاصفة... أمر نموذجي! وأحست بكراهية كبيرة في قلبها... لماذا لا تستطيع أن تكون أفضل منه بشيء؟

ـ ارجعي إلى المخيم حالاً.

وقفت ديانا مكانها جامدة وقلبها يخفق بشدة:

ـ عليك أن تحملني لأعود!

ـ بعد لحظة سأفعل... وستندمين عزيزتي... ستندمين جداً على تحديك لي. بعد أن أتعامل مع هذا الغبي في الطائرة.

كان قائد الطائرة منشغلاً بالنزول... ولا بد أنه سمع. لاحظت ديانا إنه رجل وسيم، يكبر سيمون بسنة أو يزيد... ولم يجد أي ترحاب في وجه سيمون، لكن هذا لم يردعه. بل قال:

ـ صباح الخير سيمون.

لم يرد سيمون على تحيته... بل قال بحدة:

ـ ماذا تظن نفسك فاعلاً بحق الجحيم؟ قلت لك أن لا تأتي إلى هنا!

أخرج الرجل منديلاً كبيراً ليمسح العرق عن وجهه:

ـ آسف... أعرف أنك قلت هذا. ولست غبياً. لكن لديّ أخباراً وجدت نفسي مضطراً لأبلغك إياها شخصياً.

اعترى وجه سيمون قلق مفاجيء. وكأنما عرف نوع الأخبار التي جاء بها صديقه. فتبع الرجل بعد أن ألقى نظرة سريعة إلى ديانا:

ـ أظنك تفضل أن تكون على انفراد.

استدار سيمون إلى ديانا.

ـ ستعودين إلى المخيم.

بسرعة حاولت استعادة تماسكها فتحدثت بسرعة إلى الرجل.

ـ مسيو...

لكن سيمون أحبط مسعاها فوراً... فقد كان يتوقع مثل هذا منها، رفع يده إلى مجموعة من البربر وراءه، وقال شيئاً بلغتهم، لتجد نفسها محاطة.

نبتهم كانت واضحة، اصفر وجهها وصاحت بحدة في وجه سيمون:

ـ لا بأس... لست بحاجة لاستخدام القوة... فأنا قادرة على السير بنفسي.

احمّر وجهها من الاذلال، لم يكن لديها فكرة عما فكر به الغريب عندما التقاها لكنها أملت يائسة أن يستخلص شيئاً عن حالتها

www.elromancia.com

ويحاول المساعدة.

بعد نصف ساعة سمعت هدير الطائرة المغادرة آخذة معها كل أمل كانت تفكر به للخلاص. أخذت تجول في خيمتها قلقة، تحس إحساساً فارغاً أن الغريب جاء بأخبار عن جيري واتيني وخطيبة سيمون، الذي لم تره منذ كانا قرب الطائرة. لا بد أنه الآن يتحضر للمغادرة.

للمرة الأولى منذ عرفته، خفق قلبها شفقة عليه... حتى لو عادت خطيبته له، ولو أنه غفر لها، فهل سيتمكن من نسيان التعاسة التي سببتها له؟ وارتجفت، متمنية لو كان بمقدورها أن تجنبه هذا الألم. وتناست تماماً معاملته القاسية.

كان الوقت قد تجاوز الظهر عندما عاد إليها. طوال الصباح كانت مسجونة في الخيمة وعلى بابها حارسان... مع أنها تعلم أن الامتداد المحرق للصحراء هو رادع أفضل من أي حارس... لكنها كانت محتارة مما يجري في الواحة، ولا يريدها سيمون أن تعرفه.

فاجأها بكلامه دون مقدمات:

ـ تلقيت هذا الصباح أخبار تعني أن علينا بدء التحضير لمغادرة المخيم فوراً.

لماذا ملأتها الكلمة بالرهبة؟

ـ فوراً؟ إلى أين؟

ـ سنعود إلى القصر حيث نزلت قبل أن تأتي إلى هنا، من الأفضل لك ارتداء «البرنس» فالهليكوبتر عائدة لتأخذنا في أية لحظة الآن.

فتقدمت منه لتضع يدها بلهفة على ذراعه:

ـ سيمون؟ ماذا كان يريد الرجل؟ ومن هو؟

ـ إنه مساعدي اؤمنه على حياتي!

ـ لكنك لم تبد سعيداً لرؤيته.

فتوقف، بعد أن كان متجهاً إلى غرفته:

ـ ألم أقل لك إنه يعمل عندي؟ لديه أوامر بعدم التوجه إلى هنا.

ـ ألا تبرر الاخبار التي حملها لك مخالفته للأوامر؟

ـ بلى.

ولم يزد. فأحست برعدة، وسارعت لفعل ما قاله لها. ارتدت البرنس ولحقت به إلى خارج الخيمة... لكنها أحست وهي تغادر بحنين غريب أدهشها... ظنت أنها تكره هذا المكان وأنها ستسر عندما تغادره، مع ذلك فقد أحست بارتباط به وسببه لم يكن واضحاً لها، لكنها تعرف أنها لن تعود بعد اليوم تلك الفتاة الشابة الساذجة التي وصلت إلى هذه الواحة.

ـ مسيو؟

سارعت الخطى لتلحق به، وتكمل:

ـ لا أود أن أكون متطفلة... لكن، هل الأخبار التي وصلتك لها علاقة بجيري، أم أنها عن أعمالك؟

ـ اصمتي... ألا يمكنك هذا؟ سأرضي فضولك عندما نصل إلى القصر... أعدك أن كل شيء سيتوضح لك.

كان الوقت متأخراً بعد الظهر عندما وصلت بهماالطائرة إلى مقصدهما. على الفور ساعدها سيمون على النزول، قبل أن تتمكن من التحدث إلى الطيار. وهي تسير مجبرة نحو القصر، سمعت سيمون يتحدث بالفرنسية إلى الرجل قبل أن يلحق بهما... ولم تقلع الطائرة من جديد، عاد الأمل فجأة إلى قلبها... أيمكن أن تكون منتظرة لتأخذهما إلى الدار البيضاء؟

داخل مبنى القصر الضخم الشبيه بالقلعة، كان الهدوء مسيطراً. في القاعة الكبيرة المرتفعة السقف تقدم صالح المخلص للقائهما على الفور، لكن سيمون صرفه، وشد ديانا من يدها إلى غرفة صغيرة مجاورة.

www.elromancia.com

- يجب أن نتحدث ديانا وبسرعة. ليس لدينا وقت طويل إذا كان للهليكوبتر أن تغادر قبل الظلام.

دخل صالح ومعه صينية القهوة، فتعجبت من طلب سيمون القهوة فيما هو مستعجل هكذا. وصرف صالحاً ثانية، ليصب القهوة بنفسه، لكنها لاحظت تجهم وجهه، وتمنت لو أنه يستمر فيما يود قوله... فأعصابها مشدودة، والرعب الحاد أخذ يتصاعد وقد لا تتمكن من السيطرة عليه.

كل رغبتها في القهوة تلاشت... وهزت رأسها رافضة عندما قدم لها فنجاناً، فقال ببرود:

- الأفضل أن تأخذيه يا عزيزتي... فقد تحتاجين إليه.

- أرجوك سيمون.

لكنه استمر بالدعوة إلى أن أخذت الفنجان منه. ارتشفته، ولاحظت أنه لم يصب لنفسه شيئاً... ثم قال:

- والآن... سأخبرك ما أنت تواقة لمعرفته... فرانسوا كوتيه، الرجل الذي جاء إلى الواحة هذا الصباح، جائني بأخبار... أخبار سيئة... إنها حول خطيبتي وشقيقك.

أحست ديانا بالبرد... ولم تستطع سوى التفكير بالسيدة واتيني المسكينة فشهقت «اوه... لا!» لكنه لم يحاول تخفيف الصدمة وهو يملي عليها الخبر:

- كلاهما قتل.

- لكن كيف؟

- كانا في طريقهما إلى المكسيك كما يبدو عندما تحطمت الطائرة.

الصدمة جعلت من الصعب أن تصدق الخبر. وأصبح وجهها أبيض اللون من الشحوب... صحيح أن جيري كان أنانياً وتعتبره مسؤولاً في أمور كثيرة، لكنه لا يستحق هذه النهاية! ثم تذكرت أن

سيمون فقد خطيبته... فهمست:

- أنا آسفة مسيو. لا بد أنك كنت تحبها كثيراً... ما حدث أمر مريع. لا بد أن قلبك تحطم...

قطب جبينه مستنكراً، موضحاً أنه لا ينوي بحث الموضوع مع أحد.

- لا أظن أن علينا إضاعة الوقت في التعازي آنسة واتيني. فكلاهما راشد ويعرف ماذا فعل.

- يجب أن أعود في الحال إلى لندن. لا بد أن هناك الكثير استطيع المساعدة فيه. فما حصل مريع مسيو... وأنت لم تعد بحاجة لي هنا.

استمر سيمون ينظر إليها بازدراء وهي تحاول ايجاد الكلمات لتعبر عن مشاعرها. لكنه عندما تكلم أحست بالذعر:

- لن تسافري ديانا. لن تعودي إلى بريطانيا قبل أن أضع خاتمي في اصبعك.

أحست بالبرد يجمّد دمها في عروقها:

- خاتمك مسيو؟

- أجل خاتمي... ستتزوج اليوم بعد الظهر. بعد ساعة في الواقع.

- هل جننت مسيو؟ هل هذا نوع من المزاح؟

- لست أمزح آنسة واتيني. صحيح أنني لا أحبك. وفي ظروف عادية لا يمكن أن أتزوج فتاة لها مثل سمعتك. لكنني لن أترك مثل هذه الفرصة تفلت من يدي.

- أية فرصة مسيو؟

لا يمكن ان يكون جاداً؟ لا بد أنه يغتنم آخر فرصة له ليعذبها... لكنه ضحك، نظراته الوقحة تتمتع برؤية الصدمة على وجهها. وهو يرد عليها:

www.elromancia.com

ـ الفرصة لأن أجعل عائلة واتيني تدفع ثمن ما فعلته معي... فخطيبتي يا ديانا من عائلة ثرية وكانت سترث الكثير من المال. إنني أملك الآن فرصة التعويض عما حرمني منه شقيقك... وبموته ستكونين الوريثة الوحيدة لأموال وأملاك والديك، التي أعرف أنها قيمة.

ـ لا يمكن أن تكون جاداً!

ـ بالعكس... فعائلتك استغلتني بكل احتقار، خاصة أنهم لم يكن بإمكانهم الاستمرار في العيش الرغيد بدوني. وها هو القدر يلعب الآن لصالحي... وسأسعد كثيراً يا عزيزتي عندما أرى وجه والدتك عندما أقدم لها زوجتي. صحيح أنها تستطيع بيع كل ما تملك وأن تهب أموالها للجمعيات الخيرية، لكنني قادر على إفلاسها قبل أن تخطو خطوة.

ـ ولماذا لا تشتري أنت ما تملك، فلا أظنها بعد موت جيري قادرة على الاستمرار في تسيير مصالحها.

ـ ولماذا أتعب نفسي في وقت أحصل على كل شيء بزواجي منك؟ لا تقلقي عزيزتي... ستجدين أمك واثقة من قدراتي التجارية، لترحب بي كصهر لها.

أجفلت ديانا وهي تفكر لماذا تحشر نفسها في موقف كهذا:

ـ يجب أن تعرف سيمون أنني لست ابنة السيدة واتيني. كنت أحاول اقناعك منذ لقائي بك. لكنك رفضت الاستماع إلي.

ـ توقفي عن اضاعة وقتي ووقتك يا فتاة... ولن أحذرك ثانية!

ـ لكن سيمون... لي نفس الاسم وهذا كل شيء! لقد قلت لك...

نظر إليها نظرة أرعبتها وأسكتتها فقال:

ـ لن تتفوهي بكلمة أخرى.

حدقت به كالأرنب المنوم، لا تشك في أنه قد يلجأ إلى العنف

معها... واهتز جسدها بفكرة شيطانية خبيثة... لماذا هي مضطرة لمحاولة إقناعه على أية حال؟ لماذا لا تدع الصدمة القاسية تعمل على هز كيانه وسطوته عند اكتشافه الحقيقة بنفسه؟ إنه واثق من نفسه حتى أن خسارته لخطيبته الهاربة مع رجل آخر لم تزعزع تلك الثقة... ألم يحن الوقت بعد لصدمة قوية؟ ربما عليه أن يتعلم درساً كما يحصل للناس العاديين؟

مع ذلك فالزواج منه أمر مستحيل... مهما كانت فكرتها بالانتقام منه... لن تستطيع. فبضع قبلات وبضع مداعبات، أمر ممكن أما الزواج ـ تلك الصلة المتينة ـ فإنه أمر صعب، كما أنها لا تعتقد أن هذا سيفيدهما لانعدام مشاعر الثقة المتبادلة بينهما.

بالرغم من أوامره بعدم الكلام، رفضت الطاعة وقالت:

ـ عندما تكتشف السيدة واتيني ما فعلته بي، ستتقدم بشكوى إلى الشرطة.

فابتسم ساخراً:

ـ سأقول لها إنك أنت من سعى للتمسك بهذه الفرصة. وأظنها تعرف أنك كنت راغبة في الزواج مني منذ سنوات. كما أن أحداً لم يسمعك تصرخين طلباً للمساعدة!

فهمست مذعورة:

ـ هذا لأنني أعرف أنني أضيع وقتي لو صرخت!

استمر الذعر المجنون يهاجمها بموجات عنيفة لأنها صغيرة جداً وخائفة... لم يعرف مدى خوفها لأنه يظنها أكبر مما هي عليه بعشر سنوات. وسمعته يأمرها:

ـ تعالي. الكاهن بانتظارنا. كذلك الطيار الذي سيعيده إلى بلده.

ـ أرجوك!

فجأة بدأت الأرض تميد تحت قدميها، والجدران تدور أمام عينيها، ووجدت نفسها بين ذراعي سيمون قبل أن تغيب تماماً عن

الوعي. حملها ليضعها على الأريكة، ثم خرج ليعود مع صالح الذي كان يحمل كأساً فيه شراب ما... وركع سيمون على ساق واحدة وقال بعد أن رفع لها رأسها:

- اشربي هذا وستصبحين في حال أفضل.

على عكس ما ادعى، جعلها الشراب تحس بحال اسوأ. لقد استعادت وعيها لكن قدرتها على التركيز لم تعد. فتعلقت بسيمون مذعورة:

- سيمون! أرجوك لا تتركني!

عندما قال لها انهما سيتزوجان في الحال، لم تستطع الاحتجاج. ثم أمرها بنعومة:

- كرري ما سيقوله الكاهن لك... وستعرفين متى تقولين «نعم» واؤكد لك عزيزتي أن كل شيء سيكون على ما يرام.

لم يكتف الكاهن بعقد القران بل أرشدها إلى المدينة حيث توجد كنيسته، وأكد لها أن بإمكانها الاتصال به ساعة تشاء. فهزت رأسها دون أن تعي تماماً ماذا يقول... لكنها لم تكن في وعي كامل لتدرك ماذا يحدث بالضبط.

ما كاد الكاهن يذهب، حتى سألها سيمون ساخراً عن شعورها وهي زوجته، عندها أدركت ما حدث تماماً... فصاحت به:

- لقد خدعتني! أنت لست سوى منحط...

فأمسكها من كتفيها وصاح محذراً:

- لا تكملي! تذكري أنك الآن زوجتي... وعليك طاعتي واحترامي!

- قد تتمكن من إجباري على طاعتك... لكن الاحترام أمر آخر. وأنت لم تفعل شيئاً حتى الآن تستحق الاحترام عليه، ولن تستحقه، أبداً!

فضحك ضحكة شيطانية، عيناه تلمعان بغضب فظ وهو يشدها

إليه:

- ماذا يهمني من احترام امرأة مثلك؟ سيكون أمامي أشياء أخرى اهتم بها، وأنا أحذرك... الأفضل لك أن تستعدي لتكوني كريمة معي... حبيبتي!

●●●

www.elromancia.com

٦ ـ نمر الصحراء

اتسعت عينا ديانا رعباً، وتراجعت وهي تشهق:

ـ لا يمكن أن نكون قد تزوجنا بالفعل!

ـ إننا فعلا متزوجان وبشكل قانوني. أو على الأقل قريباً سنصبح زوجين بكل ما في الكلمة من معنى.

سخريته جعلت ما يعنيه واضحاً، ووجهه ينم عن وقاحة. لكنه لم يحاول أن يلمسها، وعلى الرغم من هذا كانت تعلم أنها تحت رحمته بالكامل... لكنها لن تستسلم إليه بإرادتها، فصاحت به متمسكة بالغضب وكأنه سلاحها:

ـ لقد وضعت شيئاً في شرابي!

ـ بعض الأعشاب التي لا تضر. وإلا لكنت سببت الاحراج للكاهن. فأنا أذكر أن لسانك سليط.

ـ لا يمكن أن نكون متزوجان كما ينبغي في نظر قومك. فلقد قرأت عن عادات الزواج لدى البربر.

نوعية ابتسامته أعلمتها أنه يعرف رغبتها في الخلاص منه:

ـ في الواقع لست من البربر فكما شرحت لك يا عزيزتي إنني أحمل دمهم في عروقي. لكن لأنهم يحترمونني واحداً منهم، سأعيدك يوماً إلى الصحراء وأقدمك إلى شعبي الطيب دروجة... لو أنك فتاة بريئة لكنا تزوجنا هناك. فكرت بالأمر... لكنني خشيت أن يعرفوا أنك لست كما يجب أن تكون العروس، وهذا قد يسبب الاهانة

لكلينا.

ـ أتعني لأنك لم تقدم إليهم الأفضل؟

ـ شيء من هذا القبيل... فلديهم عادات متأصلة أن الطاهرة النقية وحدها الصالحة لي. لكن لا تزعجي نفسك صغيرتي... فأنا راض تماماً بما حصلت عليه. صحيح أن خطيبتي كانت تنحدر من عائلة فرنسية نبيلة... لكن بكونك وريثة ثروة باهظة، ستساعدين في تضميد جرح كرامتي. ولن يسارع اصدقائي في السخرية مني عندما أقدمك لهم.

كل هذا لا يهمها ولا يقلقها، ما يقلقها هو ماذا سيفعل بها عندما يكتشف أنه تزوج سكرتيرة السيدة واتيني وليس ابنتها... فهو المسؤول عما سبب لنفسه لرفضه الاستماع إليها... لكن، هل كانت مصممة على إخباره بما يكفي؟

سمعته يقول وكأنه على مسافة بعيدة منها:

ـ زنده هنا يا ديانا... لا بد أنك تودين الراحة، وأنا لدي أعمال كثيرة أنهيها. ستساعدك زنده على الاستحمام وتغيير ثيابك، سنتناول عشاءنا معاً.

سارت الخادمة، وأفكارها تدور بقلق... ماذا ينوي سيمون أن يفعل بها؟ ليس هناك مكان يمكن لها الهرب إليه، تماماً كما كانت في الصحراء. لكن ما يمنعها هنا ليست الرمال بل مرتفعات الجبال العالية. قمم ترتفع إلى ثلاثة آلاف وستماية متر من الحرارة الجافة تحت سماء زرقاء. وهذه القلعة الضخمة، تتدرج إلى الأسفل إلى سطح مخيف من المرتفعات الممتدة لتلتقي ببعضها البعض.

لا مجال مطلقاً أن تجد طريقها، والطريق التي وصلت بها إلى هنا ملتوية مخيفة... هي إذن سجينة، وستبقى هكذا إلى أن يأمر باعادتها إلى المدينة.

بينما كانت زندة تحضّر لها الحمام، غرقت ديانا في مقعدها

مجبرة نفسها على تفحص الوضع دون أن تنهار. ليست المرة الأولى التي تتوجه فيها بالامتنان لتربية الدير الصارمة، والتي أزالت من نفسها كل ميل للاستغراق في الاشفاق على الذات. بعناد أبعدت عن نفسها الرغبة الملحة بالبكاء. في كل الاحتمالات لن تقنع سيمون أنها ليست ابنة السيدة واتيني إلى أن يصلا إلى انكلترا لتواجه السيدة بنفسها بالحقيقة... ترى كيف ستكون ردة فعلها حينها؟ الحل المحتمل هو الطلاق، لكنها ليست واثقة من هذا. له من النفوذ ما قد يساعده على ايجاد طريقه، لكنه حتى ذلك الوقت لن يصغي إليها.

قد تكون ديانا صغيرة السن، لكنها أحست فجأة بأن عمرها تضاعف. وقد تكون أيضاً بريئة، لكنها ليست غبية. إنها لم تشك لحظة أن سيمون سيواجه السيدة واتيني بزواج حقيقي، ولربما بزوجة حامل... ولن يكون هذا الأمر رهيباً خاصة وهي تشعر نحوه الآن بمشاعر ناعمة لكن التفكير بغضبه عندما يكتشف حقيقتها جعلها تتصبب عرقاً. عندها، لن يعود لديها أي وهم حول حياتها فيما بعد.

بعد أن نالت حمامها استلقت على الفراش الواسع محاولة الاسترخاء لكنها أدركت أن هذا مستحيل. رأسها كان يؤلمها، وعضلات عنقها متشنجة. قلقت زندة لرؤية وجهها الشاحب... وقبل أن تحتج ديانا كانت تدلك لها كتفيها وظهرها. وهي مستلقية على وجهها أجبرت نفسها على الاسترخاء آملة على الأقل أن يمنعها هذا من التفكير... ألم تسمع يوماً أن هناك سحراً في اصابع هذه النسوة من الشرق، اكتسبته عبر قرون بعيدة من التدريب على ارضاء أزواجهن؟ لا بد أن هذا السحر أمر واقعي، وفعال، إذ سرعان ما استغرقت في النوم.

عندما استفاقت، ساعدتها زنده على تغيير ملابسها والتحضر للعشاء... وبتنهيدة مهزومة استدارت ديانا لتلحق بالخادمة إلى الطابق السفلي، حيث كان سيمون ينتظر، وابتسامة خفيفة على فمه،

وكأنه يهنىء نفسه على عروسه. واستقرت عيناه على بشرتها العارية الناعمة عند الخصر وسألها ساخراً:

ـ هل جسدك كله بهذه النعومة؟

تحت نظرته المتفحصة الباردة أحست بالنار ترتفع إلى وجنتيها... فجلست بسرعة بينما كان الخدم يقدمون الطعام، وقالت:

ـ لو سمحت باستخدام ملابسي الخاصة، لما ارتديت هذا الزي الفاضح. يجب أن تعرف هذه الحقيقة، تجنباً لإيهام نفسك بأنني ارتديتها لأجلك!

وأحنت رأسها إلى الأسفل لتمنع عينيها من التحديق بوسامته، وبالتالي منعها من فضح مشاعرها. وبدأت تتناول الطعام لتكتشف أنها كانت جائعة جداً، حتى أنها خجلت من شهيتها. أحست أخيراً بالتخمة، ولم تعد قادرة على تناول المربى الذي وضع أمامهما... كل ما رغبت به فنجان قهوة. وبعد أن ملأ لها سيمون فنجاناً قال لها:

ـ إذا كانت شهيتك للحب كشهيتك للطعام حبيبتي، سأكون أكثر من سعيد.

ردت ديانا متصلبة مما اعتبرته وقاحة:

ـ أنا لست شرهة... لكنني كنت جائعة.

ـ هذا ما لاحظته. على كل الأحوال أشعر أننا سنتفق جيداً... خاصة وقد اكتشفنا أننا لسنا متنافرين. ونحن لوحدنا هنا، ومن الأفضل التمتع بالأيام القليلة القادمة، بدلاً من تضييع الوقت بجدال لا طائل منه.

خرج الرد منها غصباً:

ـ و... عندما نعود إلى المدينة؟

ـ عندما نعود لا أظن أننا بحاجة إلى تغيير نمط حياتنا يا ديانا.

لم تستطع منع الحدة عن صوتها وهي ترد باستهجان:

ـ أتعني أنني يمكن أن أفعل ما أشاء، ولن تهتم؟

ـ ليس هذا ما عنيته بالضبط... كزوجتي، ستجدين أن مركزاً معيناً يجب أن تحافظي عليه... لكنني لن أطلب مساعدتك في الأعمال. ولدي مساكن كثيرة، هنا وفي فرنسا. وبإمكانك تسلية نفسك بالاهتمام بهذه الأملاك.

ـ أي أنك تعني أن أخصص نفسي للأمور المنزلية؟

ونسيت في غمرة غضبتها أن سيمون مقتنع بهويته وأنه لا يطلب منها شخصياً أي شيء! وتنهد نافذ الصبر:

ـ ستشعرين بسعادة أكبر إذا أرحت نفسك عزيزتي. وإلى أن نغادر هنا، سيكون اهتمامنا ببعضنا قد تلاشى... وقد يساعدك على هذا أن تضعي نصب عينك ماذا كان جزائي لما فعلته مع أخيك، وأن تحاولي التعويض عن آثامه.

شيء ما في كلامه آلمها، فاضطرت إلى رد عنيف:

ـ لا يمكنه أن يجبر خطيبتك على فعل ما فعلت.

فابتسم:

ـ وكيف نستطيع أن نعرف؟ لكن يكفيني أنني حصلت عليك، وأن الأمور تحولت إلى الأفضل. فلدي الآن زوجة جذابة، ومن خلالها سأستفيد كثيراً... زوجة قد لا يؤنبني ضميري لو قررت قضاء ليلة مع امرأة أخرى.

إذن هذا ما كان يعنيه بحديثه عن عدم تغيير نمط حياتهما! وسيطرت على ردات فعلها المؤلمة لتقول:

ـ نحن لا نعرف بعضنا جيداً سيمون... وأنت خسرت خطيبتك لتوك.

ـ ماذا تحاولين القول؟

ـ أعني أنني أفهم أن هذا الزواج ما هو إلا زواج مصلحة...

وأنك لا زلت حزيناً، وأنك لا تحبني.

فالتوى فمه سخرية:

ـ لقد خسرت خطيبتي قبل أن تموت يا ديانا. كما أنك لم تكوني يوماً تهتمين بأخيك، أو بأمك، على الرغم من اهتمامك المبالغ فيه أخيراً. ولا يمكن أن أصدق أن لدى أي منا حزن يعبّر عنه.

ـ أنت دون قلب!

ـ أفضل من أن أكون منافقاً، ومدعياً أنني محطم القلب. أما بالنسبة إلى أن زواجنا هو مصلحة، فأنت محقة، لكنني بكل تأكيد أنوي أن أكون جاداً فيه... فطالما أنت معي يا عزيزتي... سأجعل أمك تعاني، ولن تعرف ما إذا كنت قد تزوجتني بإرادتك أم لا. فأنا أذكر أنها تحب أن تكون متملكة لابنها وابنتها.

لم تعد تستطيع تحمل المزيد، فقفزت على قدميها:

ـ لو عذرتني... فأنا تعبة، وأود الذهاب إلى الفراش.

ضحكته أصابتها بالذعر:

ـ كنت أفكر بأنك لم تعودي قادرة على الانتظار.

ـ الانتظار؟ لست أفهم. لا يمكن أن تعني...؟

ـ إذا كنت تظنين أن زواجنا لن يكون كاملاً، فأنت مخطئة... لا أنوي أن أتركك وشأنك بسهولة.

ذهلت لما سمعته، فاستدارت مسرعة لتهرب منه، لكنه أمسك بها، وجذبها إليه فصرخت متألمة... ووضع اصابعه تحت ذقنها ليدير وجهها إليه.

ـ أفهمت؟

ـ يا إلهي...! أنت وحش! ظالم...

ولم تعد تسمع ما تقوله لتصاعد صوت ضربات قلبها إلى أذنيها وهي تحدق فيه. وجهه كان متجهماً عندما أبعدها نافذ الصبر عنه... وقال ساخراً:

ـ توقفي عن الادعاء بأنك مجروحة البراءة ديانا. قد يساعدك على هذا أن تتذكري أننا متزوجان. تلك حالة احترام لم تحصلي عليها من قبل مع أي رجل. والزواج مني ليس بالأمر المأساوي.

فهمست تفكر بالمستقبل:

ـ لكنه قد يكون.

وسقط رأسها إلى الأسفل... كيف يمكن لها أن تنكر كيف يجعلها تشعر، عندما تلامس يداه جسدها؟ كانت تخجل من تجاوبها الكامل لرجولته لكن هذا أمر مختلف، ولن تستطيع التفكير بما سيكون الأمر عليه لو أنه تمادى أكثر... وسمعته يقول:

ـ يجب أن تكوني مدركة أنك بالرغم من تمكنك من اخفاء سنك الحقيقي، فالسنوات ستلاحقك، وستسحب من بين يديك الفرص لايجاد زوج مناسب... وأكرر... قد نتوافق معاً. في الواقع يا عزيزتي، أجد نفسي اتطلع بشوق إلى ليلتي هذه. ليلة عرسي.

ضحكته الخشنة، مع خفوتها، لاحقت ديانا وهي تهرب من الغرفة. طوال طريقها إلى غرفة نومها أحست أن الشيطان يلاحقها، وأن خوفاً مجهولاً يربط قدميها بأجنحته.

في الغرفة، كانت زندة تنتظر... واضح أنها متشوقة لتحضير سيدتها الجديدة لاسعاد سيدها. لكن ديانا صرفتها، دون الاهتمام بما ظهر عليها من خيبة أمل، وترددت زنده بعناد، لكنها اقتنعت بالخروج بعد تأكيد ديانا بأنها ستشرح الأمر لسيمون.

كم من الوقت مضى وهي جالسة في الغرفة لوحدها مشتتة الفكر؟ أمر لا تعرفه. لكنها أحست بالذعر يسيطر عليها من جديد عندما فتح الباب ليدخل سيمون.

ـ ألست مستعدة للفراش بعد؟ أين زنده؟ قلت لها أن تساعدك.

إنه بالفعل شيخ صحراء، معتاد على أن يطاع بكل أمر يصدره. وحاولت اخفاء رعبها المتصاعد بمحاولة الرد متحدية:

ـ لقد صرفتها. فأنا أرفض أن تنزع عني ملابسي وتضعها وكأنني طفلة.

ـ رضيت أم لا... يجب أن تطيعي... من الآن وصاعداً عزيزتي... ستفعلين ما أقوله لك بالضبط.

ـ لا!

بلمحة بصر كان إلى جانبها يجذبها لتقف.

ـ أول درس سألقنه لك أن لا تعصي أمري. عندما يثور غضبي ستجدينني خطيراً.

ـ اتركني!

ضربته بيدها الصغيرة، فأمسك بكلتا يديها بيد واحدة:

ـ إذا كنت ترفضين مساعدة زنده على خلع ثيابك، وترفضين أيضاً نزعها بنفسك، سأقوم بنفسي بهذه المهمة... وإذا كان تمثيل دور العروس العذراء يسعدك، إذن فأنا مضطر لتسليتك!

ـ لا تلمسني!

ترك معصميها وهو يضحك بوقاحة، ولف ذراعيه حولها.

ـ قد لا ألمسك، لولا أنني وجدت لذة في ملامستك، ولولا أنك الآن زوجتي... أو إذا صدقت فعلا أنك حزينة على جيري...

واشتدت ذراعاه عليها، فارتجفت وهزت رأسها نفياً... لا يمكنها الكذب حول هذا. فجيري واتيني غريب عنها، كذلك هذا الرجل الممسك بها، لكن سيمون يجعل قلبها يخفق كما لم تحس به من قبل.

وهو يمرر يديه على ظهرها حاولت التخلص... لكن المحاولة كانت بالنسبة له غلطة، فلقد جن جنونه، فأطبق عليها، وأحست من داخل جسدها المرتجف برد فعل بدائي مخيف. وتسارع اندفاع الدم في عروقها، وأرجعها إلى الوراء، ليبعدها عنه قليلاً، وأمسك بثوبها وكأنه يهم بتمزيقه... فصرخت.

ـ لا! أرجوك سيمون... سأخلع ثيابي بنفسي، لو تتركني عشر دقائق فقط.

بصوت أجش من الغضب، قال دون أن يتركها:

ـ لست أنوي تركك ولو لعشر ثواني. تعالي الآن يا حبيبتي... لقد مرت عشر سنوات، لكنني أذكر ذلك الرجل الذي كنت معه يومها وكان يخلع عنك ثيابك، وكنت راضية. ولا شك أنك ستعطين زوجك نفس الفرصة؟ وإذا كنت متعقلة، سأكون لطيفاً معك، لكنني لا أعدك شيئاً لو استمريت في مقاومتي.

ـ لا...!

لكنه لم يلتفت إلى توسلها وتابع ما يريده:

ـ لقد نسيت كم أنت جميلة.

ـ سيمون... أنت لا تفهم!

وبقوة أشد مما تملك انتزعت نفسها منه، وهي تستدير لتهرب وقعت يدها على وجهه، فغرزت أظافرها بعمق في بشرته السمراء، وتدفق الدم. وبشهقة رعب، شاهدت ما فعلته، لكنها لم تتوقف. فسارعت إلى الباب، بينما كان يرفع يده إلى خده. وكالحيوان المصاب، فقدانه لقدراته كان مؤقتا، وردة فعله كانت كردة فعل نمر الصحراء... فورية ومتوحشة.

أمسك بشعرها، المتطاير خلفها وهي تركض مذعورة. وشدها بقساوة متعمدة، فتوقف هربها من الغرفة على الفور. ولفها ليضمها إليه من جديد، إلى أن صرخت طلباً للرحمة. فقال بصوت بارد:

ـ لماذا أتوقف عن إيلامك؟

وترك شعرها ليلف ذراعيه حولها، فأحست بدموع المرارة تحرق عينيها، وأدركت أنها تصرفت بطريقة سيئة لكنها استمرت في عنادها والدموع تتساقط على خديها:

ـ ستندم على هذا يا سيمون.

ـ أنا من ينوي أن يعلمك كيف الندم أيتها القطة المتوحشة! أنا رجل، وسأحصل على زوجة مطيعة، وألاعيبك السخيفة لم تعد تسليني، لقد سئمت منك. ونفذ صبري يا صغيرتي!

ـ اعطني بعض الوقت سيمون.

ـ هذا شيء مستحيل. فقبل أن تغادري هذا المكان يجب أن ينتفي كل شك في قدرتك على الخلاص مني، حبيبتي... أتفهمين؟

حملها بين ذراعيه ليلقيها فوق الفراش بعد أن أزاح الأغطية عنه، يداه تمسكان بها بخشونة، وصاح آمراً:

ـ توقفي عن مقاومتي... ودعينا نتمتع قليلاً بتحالفنا المكروه. وكامرأة لك خبرتك... يجب أن تكوني متفهمة هذه الأمور... فلنتمتع ما استطعنا طالما يمكننا أن نفعل.

وهي ترفع يديها إلى كتفيه دون وعي منها، أحست بضحكة الانتصار تهز جسده، وأحست كذلك بأمر غريب مستحيل يغلي في دمها، ونبضته تشتد حولها... فأغمضت عينيها مستسلمة لمصيرها. وأخذ كل شيء يتلاشى من أمامها ما عدا الرجل الممسك بها. وأحست بالضعف بحيث لم تستطع التفوه بكلمة احتجاج واحدة وهو يفعل ما يريد. دون أن تفهم تماما ما يجري لعدم معرفتها من قبل.

وسمعته يشهق، ويتمتم بالفرنسية... وأحست أنه توقف... ولو كان غاضباً من قبل، فاللهيب الغاضب الذي استعر فيه كان يهزه هزاً. لكن مهما كان السبب، فهو لم يستطع التغلب على مشاعره.

فيما بعد... ابتعد عنها، فاستلقت دائخة، ثم أخذت تشعر بارتخاء في أوصالها وهي تمسح الدموع عن وجهها... استدارت نحوه تنظر إليه بعينين واسعتين متوسلتين، وقد نسيت عدائيتها له. مضت عدة ثوان قبل أن تدرك أن ابتعاده عنها كان مرده الغضب... غضب أسود جعله يجمد، رغم سيطرته عليه إلا أنه كان يبدو واضحاً في احمرار وجهه.

التقط روبه عن الأرض، ووضعه بوحشية على كتفيه، والتفت إليها وعضلات فكه تنقبض. دون الاشفاق على حيرتها وارتجافها سألها بخشونة:

- من أنت؟

من أنا؟ دار السؤال مرا رات في رأسها... ولم تدرك له معنى:

- أعتقد... أعني... انني زوجتك...

- غبية! أريد معرفة من أنت حقاً! عرفت الآن أنك لست ابنة السيدة واتيني.

فبكت:

- قلت لك... لكنك رفضت الاستماع، أو التصديق...

- قلت لي؟ قلت لي بعد أن مر على وجودك هنا زمن طويل، لكنك لم تقولي قبل هذا. ولم تبذلي جهداً لتصحيح ظني بأنك لست ابنة السيدة واتيني! ولست شقيقة جيري...

- طلبت مني السيدة أن لا أفعل.

- ولماذا بحق الله؟

- لأنها تريدك أن تعتقد أنها أرسلت لك من قبلها شخصاً مهماً.

- وكنت غبية لدرجة القبول؟ لكنك كنت ذكية لدرجة أنك جعلتني أعتقد أنك تمثلين علي.

أحست ديانا بالغثيان لبؤسها واضطرابها. كيف يمكن لها أن ترد عليه؟ وأغمضت عينيها، محاولة ابعاد الكراهية التي تشاهدها في عينيه... لقد كانت معه بعيدة عن الصراحة والوضوح، بالنسبة لهويتها الحقيقية. وهي مخطئة مذنبة في خداعه... مع ذلك، ألم تفعل كل ما بوسعها لاقناعه بالحقيقة؟ وقالت له:

- كان في نية السيدة فقط أن أوصل لك رسالة التعاطف والاعتذار. ولم تكن تحلم في أن أذهب إلى أبعد من الدار البيضاء،

وظنتني سأراك لوقت قصير.

- لقد أملت في أن تخدعيني... كما أعتقد؟ وكانت تأمل في أن أسلي نفسي بك. وأنني إلى أن أكتشف حقيقتك، سيكون غضبي قد مات؟

كلماته كانت غاضبة باردة حتى أنها هزت ديانا:

- لا استطيع أن أقول لك ما إذا كانت هذه نيتها أم لا. لكنني واثقة أن لا. ويجب أن تدرك أنها كانت مضطربة جداً.

فجأة أبعدها عنه بوحشية، ينظر إلى جسدها العاري الذي نسيت أن تستره في غمرة بؤسها:

- يا إلهي! غطي نفسك أيتها اللعينة الصغيرة. ولا تدعيني أراك هكذا ثانية.

وأمسك بغطاء ليرميه فوقها، وانتظر إلى أن رفعته حتى ذقنها. قبل أن يتابع هجومه، ناسياً ما تشاركا به لتوهما، والرغبة التي أحس بها نحوها. كل هذا تحول إلى حقد وكراهية، كراهية بدت ظاهرة بحدة على وجهه الأسمر غير المتسامح.

● ● ●

www.elromancia.com

٧ ـ لقاء الشبيهتان

همست ديانا، وهي تحس بالذل والهوان:

ـ أتوقع منك أن تحاول الطلاق؟

شاهدت فتحات أنفه تتسع غضباً:

ـ أجل... سأسعى إلى طريقة ما. لكن ليس في القريب. أتودين أن يضحك الناس مني مجدداً؟ في البداية تركت خطيبتي تهرب مع رجل آخر. ثم ها أنا أنخدع في زواج مع الفتاة البديلة. يا إلهي. عندما أدركت أنك لم تعرفي رجلا من قبل، كدت أقتلك! كيف كنت تتوقعين الخروج من المأزق... اتساءل؟

ردت متألمة، والدم يرتفع إلى وجهها:

ـ لم أكن أتوقع حصول ما حصل، وإلا لتركتك تعرف مسبقاً قبل أن نتزوج.

سخريتها مرت دون تعليق، وحدقت بها عيناه الزرقاوان العميقتان كلجة المحيط...

ـ أنا الغبي... كان يجب أن أعرف أن نضارة شبابك لا يمكن أن تكون زائفة. حتى عندما حاولت زنده التأكيد لي أن شعرك الأشقر طبيعي... لم اقتنع... أنت بالطبع من عائلة محترمة؟ من هم أبواك؟

ـ كلاهما ميت.

لم يقدم لها كلمة عزاء، بل نظرة فضولية:

ـ وأين تربيت إذن؟

ـ في دير... على الأقل...

ـ يا إلهي...! يتيمة من دار للأيتام! نكرة... وأنا تزوجتك... لا يمكنني أن أفعل اسوأ من هذا ولو بحثت عن زوجة في أزقة الدار البيضاء.

فصاحت به ديانا شاحبة كوجه الأموات:

ـ اليتيمة إنسانة لا تختلف عن غيرها من الناس وبحاجة إلى التفهم والعطف.

ما إن خرجت الكلمات من فمها حتى تمنت لو أنها لم تقل الكلمات الأخيرة فقد بدت وكأنها تتوسل... لكنه تجهم وجهه ومد يديه ليمسك بها مسبباً لها ألماً أعاد الدموع إلى عينيها:

ـ لا تحزنيني «مدام»... دفاعك عن مثيلاتك مثير للاعجاب... لكنني لم أكن أرغب في واحدة منكن كزوجة لي.

لم تستطع أن ترد عليه لعلمها أنه تربى على أن يضع الحب في آخر درجة من سلم اهتماماته... لكن أيمكن أن يكون منزعجاً على خطيبته لولا أنه كان يحبها؟ وسألها:

ـ ألديك مال خاص بك؟

أيمكن لامتلاك المال أن يحسن الأمور؟ تمنت دون طائل لو أنها مليونيرة لمجرد أن تلتذ برمي الخبر في وجهه المتعجرف:

ـ لا... أنا آسفة سيمون.

صوته قاطع كالفولاذ وهو يصيح:

ـ يا إلهي! إذاً أنا مرتبط بوضيعة الأصل، مفلسة، نكرة، لكن لا تقلقي، ستنقلب النكتة عليك. وسأجعلك تعانين أيتها المحتالة الصغيرة... كما لم تعاني في حياتك من قبل!

يمكنها أن تفهم أن كبرياءه عانى ضربة موجعة فهي بالفعل نكرة، وتعجرفه لن يسمح له بمسامحتها... وتابع متجهماً:

ـ ستتكلم في الغد... في الصباح سيكون تفكيري قد صفا. وسأقول لك بالضبط ما أنوي فعله. لكن لا تتصوري أن بإمكانك الخلاص مني ديانا. لن تفعلي هذا قبل اليوم الذي اختاره للتخلص منك.

ودفعها إلى الوراء فوق الوسائد، وتركها غاضباً. ردة فعله على اكتشاف هويتها الأصلية كانت أبعد من غضب أي رجل يعتبر نفسه مخدوعاً. ربما، لأول مرة في حياته، ذكاؤه اللامع خذله... وعلى شخص ما أن يتحمل النتيجة. وبإحساس البؤس الكامل، أدركت أن هذا الشخص لا يمكن أن يكون سواها.

على عكس ما توقعت، لم يرسل سيمون بطلبها في الصباح التالي، بل أرسل مذكرة مع زنده يطلب منها التهيؤ للسفر إلى الدار البيضاء، قبل الظهر. ولدهشتها، استعادت الملابس التي جاءت فيها إلى هنا. فارتدتها أمام أنظار زنده، شاعرة أن المدة التي أبعدتها عن هذه الملابس كانت حلماً. لقد كان الوقت مساء عندما أخذتها زنده، وها هو الصباح قد حل، والأيام ما بين ذلك المساء وهذا الصباح كان لها تأثير الخوف والبعد عن الحقيقة كما الكابوس تماماً.

لسوء الحظ، على عكس الكوابيس، ما حدث خلال الأيام القليلة الماضية لا يمكن نسيانه بسهولة. لن تعود ديانا كما كانت تلك الفتاة البريئة التي أتت مغمضة العينين إلى المغرب. لقد تزوجها سيمون واعتبر نفسه مخدوعاً... كرامته تعاني الشرخ لاكتشافه أنه تزوج فتاة لا قيمة لها. فتاة بكل تأكيد لن ترث أحداً، ولا حتى ثروة واتيني الضخمة التي كانت ستكون الترياق للجرح الذي سببه له ابنها... ونوعاً من الانتقام.

بعد أن ارتدت ثيابها، ودعت زنده، التي حدقت بها بعينين محتارتين وعلمت أنها لن تستطيع أن تفهم لماذا لم يقترب سيمون من غرفة النوم طوال الصباح، ولا أن تفهم لماذا لم ينم في فراشها. لكن

الشرح لها سيكون من غير طائل، فشكرتها وهي تغادر الغرفة، فانحنت الفتاة لها:

ـ ارتوار مدام... سأكون هنا عندما تعودين.

في الطابق الأسفل كان سيمون بانتظارها، ولو لم يكن بنفس الطباع التي كان عليها الليلة الماضية... تقدم منها من مؤخرة الردهة، غريب في بذلة سوداء، مفصلة تفصيلاً متقناً. السترة مناسبة تماماً لكتفيه العريضين بطريقة لا تحققها إلاّ يدي خياط ماهر. تحتها ارتدى قميصاً أبيضاً يعكس بشكل مؤثر سمرته الجميلة... بنظرتها إليه، أحست بالذهول، ومع ذلك ممتنة. فهذا الصباح كان مظهره الجميل يشوبه نوع من التكلف والحنكة، مما جعلها تحس بالسذاجة إلى أقصى مدى. فبدون ثوبه الأبيض والبرنس، كان غريباً، لكنها أحست بالامتنان بطريقة ما لأن هذا ساعده على كبح مشاعره المضطربة. وقال لها بشكل رسمي:

ـ صباح الخير. سنغادر بالشاحنة، وستنقلنا طائرة الهليكوبتر بعد هبوطنا من الجبال. وسنصل الدار البيضاء عند المساء.

كانت قبل ذلك قد نعمت براحة لاتخاذه قرار عدم الحديث معها، لكنها الآن أحست بحاجة إلى نوع من التواصل معه... فمما لا شك فيه أن هناك شيئاً لا يمكن الاستفادة منه من رماد زواجهما! لا بد من طريقة لانقاذ شيء قبل أن تخمد النيران تماماً! لم تدر لماذا تريد انقاذ هذا الشيء... لكنها أحست في نفسها لهفة مفاجئة. فقالت له:

ـ سيمون... ألا يمكن أن... نتحدث بأمرنا؟

ـ مدام... لقد اخطأت ليلة أمس، فليس هناك ما نتحدث حوله. سأعطيك بضع تعليمات في الدار البيضاء، لكن ما من شيء لديّ للنقاش.

مع ذلك حاولت مجدداً، مطأطئة الرأس كي لا يرى الدموع في

عينيها:

ـ لا بد أن هناك شيئاً نقوله لبعضنا سيمون!

ـ أنت مخطئة مدام. من الآن وصاعداً نحن غريبان، مع أننا لفترة ما مضطران للعيش في بيت واحد. فأنا لست بحاجة لامرأة تكتسب عيشها بالخداع.

ـ لا يا سيمون... لقد فهمت كل شيء بطريقة خاطئة!

كانا لوحدهما، وصالح في الخارج يتحدث إلى سائق الشاحنة، لذلك لم يهتم سيمون باخفاض صوته.

ـ لقد حافظت على جسدك، وبعته إلى من دفع أعلى ثمن. لكن إذا حدث ولم يعجب الشاري ما اشتراه، فله الحرية برميه من النافذة... خارج حياته. وهذا... يا مدام... ما سيحدث لك في النهاية... أما الآن فلا تحاولي أن تتوسليني لأجل الحب. فستضيعين وقتك سدىً.

في مطار الدار البيضاء، أدخلها سيارته المنتظرة بسرعة، لتوصلهما إلى شقته...

شقته أذهلتها... فهي في حي سكني، كبيرة، فائقة الحداثة والفخامة، على عكس القصر والخيمة الصحراوية تماماً. السيدة واتيني علمتها الكثير عن التحف الأثرية، ومع أن الشقة حديثة، إلا أنها لاحظت وجود عدة قطع مختارة بعناية، لم تستطع أن تركز عليها كلها. ربما سيخبرها سيمون عنها فيما بعد.

من الردهة، أشار سيمون إلى ممر طويل:

ـ غرف النوم هناك... بإمكانك اختيار ما تشائين منها، ما عدا غرفتي. وهي الأخيرة، ولا تتوقعي أن استقبلك فيها.

أكان سيستقبل ابنة السيدة واتيني الحقيقية فيها؟

قبلت الشراب المبرد الذي قدمه لها، ووقفت متوترة تحاول اتخاذ قرار. هل يتوقع منها أن تختار الآن؟ لم تكن تحبذ أن ترى

نفسها تدور من غرفة إلى غرفة تقيّم كلاً منها على حدة... إنها لا تنوي الاقامة هنا إطلاقاً... فهي تحس بالرغم من جمال الشقة وفخامتها، إنها في سجن.

التفتت إليه وهو يقف يراقبها عن كثب:

ـ لم أحمل معي ملابسي، ما أرتديه فقط وفستان واحد.

ـ وما هو المقصود من هذا؟

مرة أخرى تبعثرت أفكارها ببرودته:

ـ أقصد أنني لن استطيع قضاء كل وقتي بفستان واحد.

ـ لا أحد يتوقع منك هذا. سأعطي سكرتيرتي تعليمات لفتح اعتمادات لك في أكبر المخازن. وإذا ذهبت إلى باريس بإمكانك اختيار ما شئت هناك... ولن أبخل عليك بالمال مدام.

لماذا يستمر في معاندتها هكذا؟ وهل يظن حقاً أن الأمور المادية مهمة لامرأة يحرمها... من... أمور أخرى؟ صعب عليها أن تصدق أنه ذلك الرجل الذي أظهر لها الحب والعاطفة منذ ساعات.

ـ بإمكاني استعادة ملابسي من الفندق الذي كنت أقيم فيه، صباح الغد. ولن تحتاج لفتح الاعتمادات لي. فلا زلت أملك بعض المال لشراء ما يلزمني.

فاقترب منها وعيناه تقدحان شرراً، ليمسك بكتفيها فيما يبدو أنه التعبير المفضل لديه عن القساوة:

ـ طالما أنت زوجتي، أمام الناس، سترتدين فقط ما أقدمه، ولا أرغب في أن تظهر زوجتي في خرق رخيصة... أما بالنسبة لأغراضك، فقد سحبتها من الفندق منذ أيام... ستجدينها هنا في مكان ما.

انكمشت منه متراجعة، فابتسم ساخراً:

ـ لا تخافي ديانا... لست أنوي ارواء عطشي منك الآن. ولو أحسست أني بحاجة لامرأة، ولم أجد أحداً غيرك، فقد أبحث معك

الأمر.

انطلقت يدها دون أن تستطيع منعها، بمحاولة بدائية لضربه. الاذلال الذي أبقاها خاضعة له طوال اليوم تحول إلى كراهية، سعت من تلقاء نفسها إلى مخرج.

أطبقت يده على ذراعها قبل أن تؤذيه، وأمسكها بقوة. وتصاعد لون أحمر كامد إلى وجهه، وبدا وكأنه على وشك أن يشقها إلى اثنين. التعبير على وجهه كان يوحي لها بعنفه فارتجفت... وفي تلك اللحظة سمعت سعالاً خلفهما وظهرت امرأة.

نظرت المرأة إلى ديانا بسرعة وكلّمت سيمون بفرنسية سريعة لم تفهم منها شيئاً. كل ما فهمته بعد أن تركها سيمون أن هناك شخصاً اتصل به للضرورة، وأنه قد يعاود الاتصال. بعد الرد عليها قدم لها ديانا:

ـ هذه زوجتي!

ذهلت المرأة إلا أنها سرعان ما كبحت دهشتها. لكن الذهول عاد إلى عينيها المستديرتين الكبيرتين عندما أبلغها سيمون أنهما تزوجا بالأمس... لكنه تجاهل ارتباك المرأتين وقال لديانا:

ـ مدام دوريه تأتي كل يوم للعناية بالشقة.

لم تستطع ديانا التفكير بشيء تقوله... بل فكرت بماذا يمكن لها أن تشغل وقتها إذا كانت مدام دوريه هي التي تقوم بالعمل. وأزاحت المدام دوريه بصعوبة نظرها عن وجه ديانا المتوتر، لتسأل سيمون إذا كان يريد العشاء كالعادة في الثامنة.

ـ أجل... وربما سيزورنا ضيف، فحضري مقعداً آخر.

ما إن خرجت المرأة، حتى طلبت ديانا الذهاب إلى غرفتها... فإذا كان هناك شخص قادم لرؤيته، لربما يفضل أن يراه وحيداً... حتى ولو طلب منها الحضور، فهي تشعر أنها غير قادرة على مواجهة أحد قبل أن تصبح أفضل حالاً.

بدا أنه كان مستغرقاً في التفكير، لكنه استدار بسرعة إليها:

ـ قلت لك، اختاري غرفتك بنفسك... على الأرجح ستجدين حقيبتك في إحداها.

ووجدت ديانا حقيبتها في الغرفة المجاورة لغرفته، في آخر الممر... صحيح إنها قريبة منه، لكن ماذا يهم؟ إنه لا يريدها، بضعة أقدام لا تختلف عن مئات الأميال.

أحست براحة لأن الغرفة لها حمامها الخاص، مما يجعلها منفصلة مستقلة بذاتها. فاستحمت بسرعة، واستلقت في السرير. تحس بضعف في ساقيها من الارهاق الرهيب... وسرعان ما هزت العبرات جسدها النحيل، وبكت إلى أن نامت. عندما استيقظت بعد ساعة، استحمت من جديد وارتدت ملابسها.

بتنهيدة عميقة، حاولت فعل شيء لوجهها المحمّر الملطخ بالبكاء... واستطاع الماكياج اخفاء ما أرادت، لكنه لم يستطع اخفاء التعاسة من عينيها الرماديتين... والكرامة وحدها هي التي أخرجتها من الغرفة لتواجه ما يخبئه لها ذلك اليوم.

وجدت سيمون في غرفة الاستقبال المتفرعة رأساً من الردهة... غرفة عصرية، دون مدفأة، مقاعدها من الطراز العميق، مصفوفة حول أرضها المليئة بالسجاد، أثاثها فاخر، لكنه لا يضاهي الأثاث الأثري الذي شاهدته في الردهة.

عندما دخلت، نظر إليها سيمون وكأنه يقيم قطعة أثاث:

ـ إذا كان هذا هو نوع الثياب الذي تفضلينه، فتخلصي منه، أنا لا أدير دار أيتام هنا.

أحست بالدم يتصاعد بألم إلى بشرتها، لكنها تظاهرت أنها لم تسمعه. وسألت:

ـ هذه المرأة... مدام دوريه، هل هي مدبرة المنزل؟

ـ وهل هذا أمر مهم؟ أجل... وهي لا تنام هنا... لكنها تعنى

www.elromancia.com

بشؤوني. أعتقد أن بإمكانك تسميتها بمدبرة منزل.

- ألم تقل لها إننا متزوجان؟

- لم يكن لدي وقت.

- لكنها تعرف بأمر... خطيبتك.

فرد ببرود:

- معظم الناس يعرفون بأمر خطيبتي يا ديانا. لكنهم سرعان ما سينسونها... كما سينسونك تماماً.

مرة أخرى، وانصال الخناجر تمزقها من الداخل، حاولت تجاهله واقتربت منه دون قصد. تنظر إليه بفضول.

- إذا كانت مدام دوريه تفعل كل شيء، فماذا سأفعل أنا طوال اليوم سيمون؟

- جدي لك وسيلة للتسلية. عادة، في فرنسا، الزوجة الشابة تحافظ على طاقتها لسعادة زوجها... لكنني أخشى أن تكوني مضطرة للتفتيش عن طريقة لتتخلصي من طاقتك.

أجابته بحدة وبرود:

- أتمنى أن لا أكون مهتمة كثيراً بهذا النوع من الكلام.

- بإمكاني إثارة اهتمامك بشكل أفضل.

جذبها إليه فجأة قبل أن تتمكن من التراجع... التفت ذراعاه حولها، ومرر يديه بقساوة على كتفيها ثم خصرها حتى تألمت. مع ذلك فالألم لم يمنعها من الاستسلام بضعف، بعد أن اجتاحتها موجة من مشاعر حارة من منتصف كيانها. وبدا لها وجهه قاتماً بالرغبة وقساوة فمه أثارت فيها السعادة.

بمجرد أن بدأت ذراعاها بالالتفاف حول عنقه، دفعها عنه... فأحست بالغرفة تدور بها، وكادت تقع... وارتجفت عضلة عند طرف فمه وقال بصوت منخفض ساخر:

- تمالكي نفسك ديانا... ضيفنا سيصل في أية لحظة.

لم تتحمل أن يعاملها بهذا الازدراء الساخر... كيف يمكنه أن يغازلها هكذا، ويتوقع منها أن تبقى متماسكة؟ فصاحت:

- لقد وعدتني أن لا تلمسني ثانية. ولم أطلب منك أن تفعل... كما أن عناقك لي كان تهديداً...

فقاطعها بصوت ناعم:

- ربما في حرارة اللحظة ذاتها... هذا صحيح... لكن هناك أنواعاً أخرى من العقاب غير الهجران. الاحباط مثلاً... تقولين إنك تكرهيني. لكن بين ذراعي، جسدك ينكر هذا!

في هذه اللحظة أطلت المدام إلى الغرفة لتعلن وصول الضيف بينما غرقت ديانا في مقعد مذهولة من دهاء سيمون. وسمعت المدبرة تعلن:

- الآنسة واتيني... مسيو.

الآنسة واتيني...! جمدت ديانا في مكانها... لا يمكن أن يحدث هذا! أمر مستحيل! ابنة السيدة واتيني في المكسيك... حتى أن أمها لم تحاول الاتصال بها بعد سماعها أمر جيري.

- ديانا!

واستنبطت حرارة المعرفة في صوت سيمون، وعلمت دون أدنى شك أن هذه هي ابنة السيدة واتيني.

ببطء، وكأن الأمر يؤلمها، استدارت لتحدق بالمرأة الفاتنة، التي سارعت نحو سيمون، ويداها ممدودتان إليه... إنهما لم تلتقيا من قبل. بل شاهدت صورها فقط، والتي كانت تشابه صورها. المرأة التي دخلت الآن لا تحمل شبهاً كبيراً منها. وأدركت ديانا، أن ليس هناك في الواقع من تشابه، إلا إذا فتش المرء عنه.

لهذه المرأة طولها. نفس شكل الأنف، والعينين الرماديتين القاتمتين أكثر. خصرها، الذي ربما كان نحيلاً وهي في العشرين، أصبح سميناً بشكل بارز... الفرو على كتفيها يساوي ثروة.

أمسك سيمون بيدها مبتسماً:

ـ أذكر أنك كنت شقراء في آخر مرة التقينا.

فابتسمت المرأة وهي تهز شعرها البني المتموج:

ـ كنت في المكسيك... ولم استطع اعادة صبغه هناك.

أدارت نظرها ليستقر على ديانا... للحظات بدا عليها الذهول. ثم أعادت نظرها إلى سيمون، ثم صاحت:

ـ لا بد أن هذه هي الفتاة التي قالت أمي إنها أرسلتها إليك؟ شبيهتي... أو هكذا تظن أمي.

ـ إنها تشبه ما كنت عليه... عندما كنت شابة... حتى أنه كان لها نفس الاسم.

ـ كان؟

ـ لا زلت حادة الملاحظة ديانا. إنها الآن ديانا سان كلير، زوجتي، لقد تزوجنا بالأمس.

فشهقت:

ـ تزوجتما!

فابتسم:

ـ لا تذهلي هكذا عزيزتي. قد تكون هذه غلطة... لكن لسوء الحظ أمر حقيقي.

حدقت به ابنة السيدة واتيني متوسلة:

ـ لكن لماذا يا سيمون... أمي أرسلتها إلى هنا لتوصل رسالة. وأنا كنت مسافرة.

فاستوت ديانا في مقعدها صائحة:

ـ لماذا...؟

لكن سيمون أسكتها بنظرة حادة، قبل أن يستدير إلى شقيقة جيري يهز كتفيه بندم:

ـ أخشى أنني وقعت ضحية سوء فهم، لكنه أمر يتكفل به بعض

الوقت وطول الصبر... والآن اخبريني يا عزيزتي... هل أنت باقية هنا؟

أمام عيني ديانا المعذبتين، قاد المرأة إلى زاوية الغرفة وقدم لها شراباً... ثم تابع استجوابها بصوت منخفض، طوال الوقت، وهو ينظر إليها بشغف وكأنها امرأة مميزة.

بعد قليل، عندما استأذن سيمون ليحدث المدام دوريه، استدارت المرأة إلى ديانا بحقد... وتلاشت النعومة المزيفة التي أظهرتها أمام سيمون، وحل مكانها حقد سام، وصاحت بها:

ـ أيتها الغشاشة الحقيرة. لست أدري ما هي لعبتك، لكن من الواضح أن سيمون تواق للخلاص منك.

أحست ديانا بجرح مذل لدرجة عدم القدرة على التفكير بكلمات ترد بها... فقد اعترف سيمون بنفسه أن زواجهما غلطة... فما فائدة الانكار؟ وأكملت المرأة:

ـ ربما لأنك تشبهيني، ظنك تفين بالمرام... كان يمكن له أن يتزوجني منذ سنوات لو أنني شجعته.

فردت ديانا:

ـ لكنك متزوجة الآن.

ـ لا... لست متزوجة... أيظن سيمون هذا؟ كنت سأتزوج لكنني لم أفعل، وعدت إلى أمي بعد رحيلك... وبعد أن مللت المكسيك.

ـ إذن، تعلمين بموت جيري!

ـ لا حاجة لك للهمس! طبعاً أعرف... ولماذا عليّ أن أحزن عليه؟ لم نحب بعضنا مطلقاً.

ـ لكن أمك؟

ـ اوه... ستتغلب على حزنها، خاصة أنني وعدتها بأن أكون عاقلة وأساعدها بأعمال العائلة. لدي دماغ يزن مرتين دماغ جيري.

www.elromancia.com

وأنا وسيمون سنعمل معاً، بشكل جيد.

ـ هل تنوين البقاء هنا؟

ـ بكل تأكيد يا فتاتي. ألم ينكر سيمون لتوه وجود زواج كامل بينكما؟ أنا واثقة أنه سينساه، بطريقة ما، وبعد بضعة أشهر، وربما أسابيع، قد أحل مكانك. وقبل هذا سأحل مكانك بشكل غير رسمي... إذا كنت تفهمين ما أقول؟

طوال وجبة العشاء، والتي رفض سيمون أن يدعها تتخلص منها، جلست ديانا بصمت مطبق. فابنة السيدة واتيني، «دان» كما تفضل أن تدعى، كانت نسخة طبق الأصل عن قساوة سيمون. ربما هذا هو سبب اعجابهما ببعضهما كثيراً... كانت تهاجم ديانا بقساوة كافية، ثم تتجاهلها، كما يفعل سيمون. كلاهما، أخذ يناقش موت جيري، كما يناقش أمر غريب عنه، وكيف أن هذا الموت قد يؤثر على مختلف الشركات التي كان يعمل فيها. والمشاكل القانونية التي سيثيرها موته، والقانون المغربي الذي ينص على أن يحتفظ مغربي بمعظم الأسهم. وبدا لديانا من الحديث أن مركز سيمون أكثر أماناً من مركز السيدة واتيني.

أدركت ديانا أن شقيقة جيري، إضافة إلى قساوتها واتساع ثقافتها وحنكتها... جذابة كذلك وذكية. وأن سيمون لم يتمتع فقط بالحديث معها بل لم يتورع عن التودد إليها، حتى أمام أنظار زوجته. كان يلامس ذراعها ويبتسم لها وكأن لا وجود لزوجته... وعندما وقفت لتعود إلى فندقها عرض عليها توصيلها... وأحست ديانا بالضعف عندما التقت عيناها بعينيه، لكنها مع ذلك أحست بالارتياح لعدم اصراره على بقاء المرأة معهما في المنزل.

لم تشاهد ديانا سيمون حتى الأمسية التالية. كانت قد استيقظت باكراً وعرفت أنه غادر المنزل... ولم تستطع إلا أن تتساءل عما إذا كان قد أمضى ليلته مع «دان» في الفندق. وعندما قالت السيدة دوريه

إنه تناول الفطار منذ ساعة أحست بالارتياح.

الارهاق الغريب الذي لازمها منذ مغادرتها القصر... استمر كما هو. مع ذلك لم تخرج عندما اقترحت عليها المدبرة أن تتمشى قليلاً. وبقيت طوال النهار في الشقة، آملة أن يتصل بها سيمون، لكن الهاتف استمر في صمته، ومضى الوقت متجهماً.

في القصر، قال لها إنه سيكون موضع سخرية الجميع إذا اكتشف أحد أنه خدع في زواجه منها... لكن، ألن تطلب شقيقة جيري تفسيراً لسبب زواجه من سكرتيرة أمها؟ كم تمنت ديانا أن تعرف تلك المرأة... ولا شيء مطلقاً يمنعها من الذهاب إليها بنفسها لتقص عليها القصة كاملة. لكنها انكمشت من الفكرة، فهي لا تتوق لفعل شيء قد يؤذي سيمون، بغض النظر عن معاملته السيئة لها.

تلك الليلة عندما جاء، دخل غرفة نومها دون أن يقرع الباب. كانت قد استحمت ولم ترتد ملابسها بعد، على وشك الإمساك بفرشاة الشعر عندما دخل. فاستدارت نحوه:

ـ سيمون؟

ليلة أمس لم يخطىء بشيء معها لكنه كان متباعداً... أما الآن فهو يبدو متوتراً، وشعره مشعث، والخطوط بارزة حول فمه... فأحست بتعاطف مفاجىء معه... وقالت:

ـ أنت تعب؟

أخذ الفرشاة من يدها، فأحست أنه على وشك أن يضربها بها، لكنه قال بحدة:

ـ لست تعباً بقدر ما أنا قلق لغيابك.

فصاحت:

ـ حسناً، أتمنى أن لا تنظر إلي هكذا! ماذا فعلت لك الآن؟

تابع نظره إليها، عيناه تجولان في جسدها الهش قبل أن تعودا إلى النظر نحو ارتجاف زوايا فمها... ثم سألها ببطء:

ـ اتساءل ما إذا كنت قد عرفت، أن جيري وخطيبتي الراحلة عندما تزوجا، كانت قد رتبت أمر ترك كل مالها له؟

ـ لا...! وكيف لي أن أعرف؟ هذا يعني أن السيدة واتيني وابنتها سترثان كل شيء، في النهاية؟

ـ كل بنس.

ـ إذن... لو أنك انتظرت قليلاً، وتزوجت الفتاة التي هي حقاً شقيقته...

فقاطعها بوحشية:

ـ لا تقلقي... سأحصل على كل شيء في الوقت المناسب... بعد أن يمر الوقت الكافي لأتخلص منك.

ابيضّ وجهها من الشحوب، غير قادرة على التصديق بأن يكون مرتزقاً هكذا، مع علمها أن الفرنسيين قد يعتبرون مثل هذه الأمور مهمة:

ـ قلت لك قبلاً... لا يمكنك لومي بالكامل على ما حصل!

اشتدت قبضة اصابعه على الفرشاة التي يحملها:

ـ لا تدعيني اسمع مثل هذا الكلام ثانية.

تنفست ديانا عميقاً وبسرعة، وضمت قبضتيها:

ـ هل قلت لدان لماذا تزوجتني؟

فصاح متجهماً:

ـ لا! ومن الأفضل لك أن لا تفعلي. إنها تعتقد أن الزواج حصل دون تحضير، ولمجرد أنك تشبهين ما كانت عليه، منذ زمن بعيد.

ـ ألن تظن بأنني أثرت اهتمامك؟

ـ لا أعتقد. لقد تغيرت دان، أصبحت امرأة ناضجة، ولو أنها لم تعد تملك نضارتك.

ـ إنها... أصبحت أكثر... خبرة.

وضع الفرشاة من يده:

ـ كثيراً...

ورفع يده إلى ذقن ديانا ليدير وجهها إليه:

ـ قد تكون براعم الورود جميلة، لكن على المرء أن لا ينسى لذة الوردة المتفتحة.

انتزعت ديانا ذقنها من يده، وهذا ما لم يسره، وقالت:

ـ لا أريد سماع تعليقاتك السخيفة سيمون.

ـ كوني حذرة، فمن يدعوني بالسخيف، يندم...

وقبل أن تستطيع الابتعاد عنه امتدت يده تحت روبها ليداعب كتفيها، ثم خديها وكأنه يحاول تحديها أن تحتج... برعشة داخلية، وقفت دون حراك... وأحست بالمرارة تتلاشى منها... ولم يبق سوى الرغبة، على الرغم مما تفكر فيه بأن ترتمي عليه وأن تحس بجسده يتلاصق بجسدها. وسمعت رنة الانتصار في صوته وهو يقول:

ـ لست غبياً لأعرف أنك ترغبين بي... وإذا أصريت على إثارة غضبي... ستندمين... ولو أحببت لأشعلت رغباتك بسرعة لتحرقك. واتركك لتتوسلي إلي لأضمك بين ذراعي وآخذك إلى فراشي... كما ليلة زفافنا...

صمت فجأة وتنفس بصعوبة وعمق... تصبب العرق على جبينه وبدا عليه الغضب:

ـ اللعنة!

أبعدها عنه وأكمل:

ـ لا بد أنني سأجن! منذ أول مرة شاهدتك فيها...

وعاد إلى الصمت، يرجع شعره الأسود إلى الوراء باصابعه. فتمتمت ديانا باسمه، بارتباك كما انهى آخر جملة له... مع أنها تعلم أنه ولو دخل غرفتها، فهو لا ينوي ملامستها... وعندما تكلم بوحشية عن ليلة زفافهما، كان يقول كلاماً نابعاً من أعماقه... لقد

www.elromancia.com

ذهل... لكن، مهما اكتشف في نفسه من مشاعر، فهي ترى أن هذه المشاعر لم تنجح سوى في إثارة غضبه أكثر فأكثر.

دون اهتمام للنظرة المتوسلة في عينيها، استدار عنها... وتحدث من فوق كتفه وهو يغادر الغرفة:

- سأتعشى الليلة في الخارج. لا لزوم لارتداء ثيابك... سأبلغ السيدة دوريه أن تحضر لك الطعام إلى هنا... كي تتمكني من النوم باكراً...

●●●

٨ - تبكي على وسادته

أمضت ديانا الأسابيع التي تلت في استكشاف المدينة ومحلاتها. الدار البيضاء أكبر مدينة تجارية في المغرب، وفيها أكبر ميناء بحري على الأطلسي... من المفترض أن تكون بيضاء كما يوحي اسمها، لكن ديانا وجدت أن ألوان مبانيها إما الأحمر المصفر، أو الزهري أو بلون الصدأ. مبنية على الطراز العربي القديم علماً أنها مدينة عصرية بنيت على انقاض مدينة قديمة أصبحت الآن ضاحية من ضواحي الدار البيضاء، كانت موجودة في القرن الثاني عشر، احتلها البرتغاليون والفرنسيون والاسبان، عبر العصور. اكتسبت أهميتها لأنها أسهل طريق إلى المغرب، ومركز تجمع لمنتجات المناطق الصحراوية، والمناطق المجاورة، الثرية بالمنتوجات. الميناء، كبير ومزدحم، ومن أكبر مراكز تصدير الفوسفات في العالم، كما أن في المدينة مصانع ومؤسسات لها اسماء عالمية.

احست بالانجذاب لهذه المدينة الجميلة... وحاولت أن تعرف شيئاً عن أعمال سيمون فيها، لكنها لم تلق النجاح. فاسم سان كلير كان يجعل الناس يحدقون فيها باحتراس، ولا يرغبون في اعطاء أية معلومات... مع أنها وجدت نفس الاحترام له كما في الصحراء، لكن هذا، وبشكل غريب، بدا لها يشكل جداراً أسوداً لم تستطع اختراقه. في النهاية تخلت عن الفكرة، لتركز اهتمامها باشياء لا تثير اضطرابها.

www.elromancia.com

سيمون، كان يصر على أن ترتدي أفضل الثياب، مع أنه لم يقدمها بعد سوى لبضعة اصدقاء... وديانا تعرف أنها قد تتمتع بشراء الملابس لو أن علاقتها بزوجها كانت أسعد حالاً... في النهاية، وبالرغم من أنها وجدت معظم المحلات عظيمة وحديثة، طلبت صنع ملابسها في محل خياطة صغير عرفتها عليه السيدة دوريه... في البداية لم تكن ديانا واثقة من قدرة صاحبته لكن بعد انهاء بضع بذلات وفساتين جميلة الطراز، وبثمن زهيد، تلاشت كل شكوكها. وعندما عرضت أن تدفع أكثر مما طلبت الخياطة، هزت السيدة دوريه رأسها وقالت بحدة:

ـ إذا دفعت لها أكثر، فسيصيبها الطمع وتطلب المزيد من الآخرين.

بدت هذه فلسفة غريبة لديانا، لكنها لم تجادل... وقررت أن تتحدث بالأمر مع سيمون، إذا حصلت على فرصة، وإذا استمع إليها. والسيدة دوريه بالرغم من أنها مراكشية، إلا أن نصفها فرنسي، ولا تؤمن بدفع بنس أكثر من اللازم.

كانت ديانا تتساءل بأسى، متى سترتدي فساتينها الجديدة. عندما فاجأها سيمون بدخوله عليها ذات صباح، قبل أن تنهض من السرير. وقال لها وهي تحاول النهوض مجفلة:

ـ لا تزعجي نفسك! سنخرج معاً هذا المساء مع «دان» وصديق آخر... فهل اشتريت ما يلزمك من الملابس؟

أحست فجأة بالسعادة:

ـ أجل.

ولم تذكره أن فواتير كلفتها وصلته «دفعها... فقلة اهتمامه بها، منذ دخلا إلى الدار البيضاء، تصاعدت حتى وصلت إلى حد الهجران... فهل يمكن أن تكون هذه الدعوة إشارة إلى أنه بدأ يرق لها؟ قد يكون من غير المفيد أن تدعه يعرف ماذا فعلت دعوته هذه

لها، لكن في نفس الوقت لم تستطع اخماد البريق الذي شع في عينيها من السعادة وردت بخجل:

ـ سأحب جداً أن أخرج معك... من هو هذا الصديق الآخر... رجل؟

ـ طبعاً... إنه فرانسوا كوتيه، الرجل الذي زارني إلى الصحراء.

ـ من جاءك بالأخبار السيئة...

ـ بنفسه.

لا بد أن دان واتيني قد انجذبت إليه... وهل هناك أمر طبيعي أكثر من هذا وفرانسوا له مركز السلطة في مؤسسة سيمون؟ مع ذلك، إذا لم يكن سيمون يخرج مع دان عندما لا يكون في البيت، فإلى أين يذهب؟ أتكون حمقاء لتظنه منهمكاً بأعماله؟ التفكير السليم يرفض السماح لها بتصديق هذا. لكن لأول مرة انتصر قلبها على عقلها! فابتسمت لسيمون وهي تجلس في السرير الكبير، لا تهتم بأن تكشف غلالة النوم أكثر مما تخفي:

ـ أظنك ستعجب بما اشتريت سيمون.

أصغى إليها بصبر، بعد أن تركها تتحدث مدة أطول طارحاً عليها بعض الأسئلة. وعندما صمتت أخيراً، أبعد نظرته الحادة عنها:

ـ كوني جاهزة عند الثامنة... والأفضل أن تقولي للسيدة دوريه إننا لن نتناول العشاء هنا.

ـ حاضر سيمون.

اللهجة الحزينة التي استخدمتها، بعد احساسها أنه على وشك تركها، أعادت القلق إلى عينيه، فتحدث إليها بخشونة:

ـ في المرة القادمة عندما أدخل عليك الغرفة، أرجو أن تغطي نفسك. لا أتقبل هذا النوع من الدعوة التي توحين بها، ليس في مثل هذا الوقت من الصباح.

عاد ليكون غريباً من جديد. وشحب وجه ديانا، بعد أن جعلها

تحس علي الفور بالخجل:

ـ أنا آسفة سيمون.

قفز إلى عينيه نوع من الرضى القاسي، لكنه هز كتفيه واستدار عنها.

ـ أرجو أن تتأكدي أن سترتي البيضاء قد عادت من التنظيف، فالسيدة دوريه لا تنتبه لمثل هذه الأمور.

مع كل كلامه المؤلم لها، أعطى هذا الأمر راحة لديانا لتمكنها أخيراً من فعل شيء له، فالوقت كان يمر ثقيلاً دون راحة بال، وهو أمر يوفره عادة الزواج المستقر لكل زوجة. غالباً ما كانت تشعر أنها معلقة في الفراغ، تطوف فوق غيوم غير مستقرة وغير واقعية... تنتظر فقط اللحظة الرهيبة عندما يقرر سيمون في النهاية، أن يرميها إلى الموت متحطمة على صخور حطمت قلبها من قبل.

استطاعتها الآن أن تدخل غرفته، بإذن منه، كان كشعاع من أشعة الشمس، بعد أسابيع من المطر، مع أنها أحست أن هذا التشبيه سخيف في بلد لا تتوقف فيه الشمس عن السطوع... لكنها تعجبت لماذا يسأل عن سترة محددة بينما لديه العشرات... والسيدة دوريه لطالما تحدثت عن خياطه بإعجاب ظاهر.

الدخول إلى غرفته كان بالنسبة لها كدخول مكان مقدس. لم تكن قد دخلتها من قبل، ولم تجرؤ حتى على النظر إلى الداخل. ودخلت بأنفاس محبوسة وحذر... تتساءل كيف ستكون مشاعرها لو استطاعت أن تنام هنا إلى جانبه كل ليلة، كعروس حقيقية؟

توقفت في منتصف الغرفة للحظات، تملأ رئتيها من أنفاسه الرجولية الخفيفة، التي هي جزء منه، والتي لا تزال عالقة في الجو بالرغم من عدم وجوده فيها... بأعصاب مرتجفة نظرت إلى السرير. إنه واسع جداً وطويل ليسع جسده الكبير. كم من النساء استقبل فيه؟ كم امرأة احتواها بين ذراعيه ليمنحها الحب كما منحه لعروسه في

القصر؟

هذه الذكرى سببت صدمة اصابتها بغصة مؤلمة، فتخلصت منها متنحنحة... هل دخلت دان الغرفة؟ حاولت أن لا تتصوره مستلقياً على الفراش، يستريح بعد ليلة حب. حاولت أن لا تراه يستيقظ في الصباح الباكر ليغمر امرأة بين ذراعيه من جديد.

سارعت ديانا، ووجهها يحترق، إلى خزانته... هذا ما كسبته من قضاء وقتها لوحدها، في التفكير برجل لا يريدها... رجل يعتبر الزواج منها غلطة. السترة هنا، معلقة مع ثلاث سترات أخرى... وأحست من جديد بالارتباك. الخزانة مليئة بالملابس... أكثر مما قد يتمكن من استخدامه للكثير من الأمسيات... ولم تفهم لماذا سألها أن تهتم بهذه السترة بالذات.

كانت على وشك أن تخرج من الغرفة، عندما وقعت عيناها على صورة فوق طاولة الزينة. شيء ما حول الصورة دفعها إليها، فالتقطتها. تقدمت بها نحو أقرب نافذة وأحست بأن الدماء تجمدت في عروقها. إنها صورة دان واتيني، ومن الواضح أنها التقطت لها مؤخراً... ولم يعد لدى ديانا شك في أن سيمون كان يقصد أن تراها. وما سترته سوى عذر ليجعلها تعلم أنه لا يزال ينوي الزواج من دان حالما يستطيع. في زاوية الصورة كتبت دان: «ذكرى بعد ظهر الأمس الذي قضيناه معاً».

بشهقة ألم يائس، رمت ديانا الصورة، ورمت نفسها على السرير وبدأت تبكي.

عندما انتهت من ارتداء ملابسها كانت تحس بأنها أفضل حالاً، مع أن قلبها لا يزال مثقلاً بالحزن. لكن إحساساً كالحاً بالاستسلام كان يغطي ألمها. لربما كان سيمون لطيفاً كي لا يتركها تشك في نواياه المستقبلية. وعذاب معرفتها بشكل قاطع، أنه ودان يمضيان أوقاتهما سوية، سيبقى ملازماً لها، لكنها لن تُصدم بعد الآن.

سمعت سيمون يصل إلى المنزل، فلم تخرج للقائه بل بقيت في غرفتها بعد تفحصها لوجهها للتأكد من عدم وجود آثار لدموعها، ثم ذهبت تنتظره في غرفة الجلوس. لن يفيدها الانتظار إلى أن يطل برأسه ليسألها إذا كانت جاهزة... لكنه على الأقل لم يخرجها تماماً من حياته. وبدا واضحاً الآن أنه سألها الخروج معه ليمنع القيل والقال عن نفسه وعن دان.

عندما أطل عليها، قفز الغول المعروف: طويل وأسمر وجميل، إلى ذهنها، فارتجفت من شيء يقارب الاثارة، شعور مرت بمثله من قبل، ولم تفهمه. ومرت عيناه فوق جسدها النحيل:

ـ تبدين فاتنة، مدام.

سخريته أجفلتها لكنها كانت قد اعتادت عليها... وبتصميم قوي ابتسمت:

ـ لقد حاولت جهدي.

فرد ببرود:

ـ ما من شك أن فرنسوا سيعجب بك.

فجأة، بعودة شعور اليأس، قفزت الدموع إلى عينيها. وبدون شفقة صاح بها:

ـ لأجل السماء... تعلمي السيطرة على نفسك! إذا كنت ستبكين كلما حدثتك بحدة، فلن تفعلي سوى البكاء... وفي الحديث عن البكاء... لا يعجبني أبداً أن أرى فراشي بمثل تلك الحالة. فوسادتي مبللة!

وأحست ديانا بأنها ترتجف مذعورة... كيف يمكن أن تكون بلهاء هكذا؟ لقد نادتها السيدة دوريه، واضطرت لتجفيف دموعها وترك الغرفة بسرعة. ونسيت العودة لترتيب الفراش من جديد... وتمتمت بائسة تحس بآخر خيوط تماسكها تكاد تنهار أمام إذلالها:

ـ أنا آسفة... كان رأسي يؤلمني.

ـ لم اسألك السبب. كل ما أطلبه قليل من السيطرة على نفسك. عندما يضطر شخصان إلى العيش معاً، السيطرة على النفس أمر ضروري!

يا إلهي؟ أليس في قلبه أية عاطفة؟ اشاحت بوجهها عنه وأجابت:

ـ سأتأكد من عدم حصول هذا ثانية.

فأمسك بذراعها بين اصابعه الفولاذية، لكن قبل أن يقول المزيد... دخلت السيدة دوريه بعد أن قرعت الباب لتبلغهما أن ضيفيهما ينتظران. فنزلا رأساً للانضمام إليهما. وكان فرنسوا كوتيه يقود سيارة فاخرة، لا بد كلفته عدة الاف، ودان جالسة قربه... فرنسوا، والذي لم تشاهده ديانا سوى مرة، لم يبد أنه مرتاح قرب ضيفته الفاتنة. بل نظر إلى سيمون وزوجته مما سبّب لديانا الارتياح. فابتسمت له وهي تجلس إلى جانب سيمون في المقعد الخلفي.

خرجت بهم السيارة باتجاه الغرب، على طول الطريق الساحلية. حيث يمكن سماع صوت تكسر الأمواج الضخمة على صخور ساحل الأطلسي الخشنة... إلى البعيد قليلاً، كان هناك مؤسسات لأماكن السياحة، في مقابلها أفضل ملاهي كازابلانكا ونواديها الليلية ومطاعمها... في المدينة نفسها لا يوجد سوى القليل القليل من مثل هذا النشاط بعد منتصف الليل... وابتعدت المنازل القديمة المرتفعة، لتطل عليهم الضاحية حيث عدة فنادق فخمة، وبدأ فرنسوا يعرف المنطقة بظهر يده، وهو يقود بسرعة دون تردد.

كانت دان تتكيء على مؤخرة مقعدها، تحدث سيمون، الذي مال إلى الأمام نحوها باهتمام. متجاهلاً طوال الوقت وجود زوجته الجالسة بصمت إلى جانبه.

تناولا عشاءً جيداً في ملهى ليلي فاخر، على الطراز المغربي... ولم تأكل ديانا الكثير. مؤخراً، شهيتها للأكل تخلت عنها وبدت

أنحف بكثير. منظر الكثير من الطعام والشراب أمامها جعلها تفقد شهيتها نهائياً، بدلاً من أن تزيدها.

فرنسوا، كما اكتشفت، رجل كيّس جداً، وأعطاها ما تستحقه من الاهتمام والاطراء. لم تكن تدري كيف كانت ستمضي سهرتها بدونه. رغب في الرقص معها بعد الأكل، لكنه كان مهذباً لطيفاً حول الأمر ولم يصرّ عليها، مما جعلها تشعر بالامتنان. وكأنه كان يخشى أن يثير نقمة سيمون... فسأله:

ـ هل لي أن أرقص مع زوجتك سيمون؟

ـ بكل تأكيد... تفضلا.

وأجفلت ديانا، فصوته كان بعيداً عن أي اهتمام. وتساءلت عما إذا كان يتعمد ايلامها... وكان من الأفضل له أن يعلن علناً أنه لا يهتم بما تفعله زوجته. خلال العشاء لم يتحدث إليها، بل وجّه كل اهتمامه إلى دان، التي جلست «تتغنج» وكأنها القطة المستسلمة. ولاحظت ديانا أن فرنسوا متعجب، لكنه لا بد عزا تصرف سيمون إلى وجود نزاع بين الأحبة. ولم تكن تنوي شرح الأمر له وهي ترقصه.

لكن عندما عادا إلى الطاولة، ولم يجدا سيمون ولا دان، دفعته نظرة الألم التي بدت على ديانا إلى القول:

ـ لا تحزني هكذا مدموزيل... أعتذر... أعني مدام... أنت تبدين صغيرة جداً حتى أنني نسيت... سيكون سيمون هنا بعد لحظات.

حاولت جهدها التماسك وتمتمت:

ـ طبعاً! أعرفت سيمون منذ زمن مسيو؟

ـ نادني فرنسوا... أجل عرفته منذ سنوات عديدة... ونحن من نفس العمر، نعمل معاً.

دهشت لظنها أنه أكبر سناً:

ـ آسفة... لم تتح الفرصة لأكلمك في الواحة.

ـ لم يكن الوقت مناسباً للتعارف.

ابتسامته اللطيفة أزالت كل أثر للتحفظ... ولأنها لم تستطع التوقف عن التفكير بسيمون بعد أن تأخر في العودة، أخذت تطرح اسئلة عنه، اسئلة جعلت فرنسوا يتساءل لماذا لم تطرحها على سيمون. لكنه مع ذلك أجابها عليها:

ـ والداه كانا فرنسيان. لكنه ولد هنا، كذلك والده. ولو أنه لا يملك الكثير من الدم المغربي في شرايينه إلا أن البلاد تمتلك كل ولائه.

ـ قال لي إنه من البربر... جزئياً.

ـ أجل... عبر سلف قديم العهد... لكنه لا ينساهم... إنه يفعل الكثير لأجلهم، ويخصص الكثير من الوقت لمساعدة المساكين.

ـ كل وقت فراغه؟

فابتسم فرنسوا:

ـ القليل لمتعته... يجب أن اعترف مدام. لكن لا بد أن الأمر اختلف الآن بعد زواجه. إنه رجل جذاب، وأنت تفهمين.

إنها تفهم... وتفهم جيداً. ألم ترفض دقات قلبها أن تقاوم جاذبيته الرجولية، مع كل ما بذلت من جهد لتجاهلها!

تقدم أحد السقاة من فرنسوا وأعطاه مذكرة... قرأها وتجهم وجهه... فسألته:

ـ ما الأمر؟

بدا عليه الحرج، فقال بعد تردد:

ـ أنا... الأفضل أن تقرأيها بنفسك يا عزيزتي.

ـ سأصدق كلامك عنها.

فقال مقطباً:

ـ أجل... حسناً... يبدو أنه والآنسة واتيني قد ذهبا إلى مكان آخر. ويطلب مني إيصالك إلى المنزل.

شحب وجه ديانا، ولم تستطع منع صرخة ذهول:

ـ اوه... لا!

وأشار فرنسوا بيده إلى الساقي ليبعده. وقال لها بصوت لطيف:

ـ لا تحزني هكذا ديانا. كل الأحبة تتخاصم، ثم تسعد بالمصالحة. لا استطيع القول إنني موافق على ما فعله سيمون، لكن قد يكون له أسبابه المقنعة. ولسوء الحظ، إنه ليس معتاداً على تفسير تصرفاته، خاصة إلى امرأة.

ـ لكنني زوجته... زواجنا كان غلطة... إنه لا يحبني.

عندما كانت مستلقية فيما بعد تلك الليلة في فراشها، أحست أنها كانت غبية للاعتراف بالحقيقة أمام فرنسوا. إنها مخطئة في تركها للمرارة أن تحل عقدة لسانها. مع ذلك فقد أحس قلبها بالراحة للمواساة والتعاطف اللذان حصلت عليهما... صحيح أنها لم تقل له كل شيء، لكنها أحست براحة لأنها لم تعد تحمل العبء لوحدها.

قد يكون فرنسوا مخلصاً لسيمون، لكن زوجة سيمون راقت له بصورة مختلفة. إنها صغيرة، لطيفة، وجميلة جداً، ورغب في حمايتها... وبدلاً من أن يأخذها رأساً إلى المنزل كما طلب سيمون، أصر على تناول المزيد من القهوة، ورقصا ثانية. فلا فائدة، كما قال، من الاستلقاء في الفراش والحزن.

مرت ساعتان قبل أن يعودا إلى الشقة... ودخلت رأساً إلى غرفتها، وظنت أنها سمعت صوتاً في غرفة سيمون. لكنها ظنت أنها تتخيل. ولا فائدة من أن تسمح لنفسها بأن يلاحقها هكذا... وفرنسوا على حق، أن تكون متعبة بائسة أفضل من أن تكون بائسة فقط... وخلعت ملابسها لتدخل الفراش... ونامت على الفور.

لسوء الحظ مداواة فرنسوا لجرحها، أزاله سيمون وقت الإفطار. كان نادراً ما ينضم إليها للإفطار، ويخرج عادة قبل أن تستفيق بوقت طويل. هذا الصباح، لظنها أنه خرج كعادته، خرجت من غرفتها سعياً

وراء فنجان قهوة، لا ترتدي سوى ثوب نوم حريري. وأجفلت بشدة عندما شاهدته يجلس في المطبخ يصب لنفسه فنجان قهوة... كان يرتدي ثياب العمل لكنه لم يرتدي سترته بعد. وتساءلت ديانا في نفسها كيف قضى ليلته مع دان. فهو لم يحاول اخفاء واقع أنه استمتع كثيراً... ألا يحس بوخز ضمير مطلقاً تجاه زوجة... تحبه؟

حاولت التراجع بسرعة، لكن صوته أعادها إليه:

ـ لا تذهبي أريد التحدث معك.

لم تستدر نحوه، وقالت:

ـ لماذا؟

فوقف، صوت دفعه الكرسي إلى الوراء جعلها حذرة، فاستدارت بسرعة لتواجهه، وبخطوتين طويلتين وصل إليها. وأمسك بها ليدفعها ويجلسها فوق الكرسي بقوة، بينما جلس هو على حافة الطاولة واستند على يده لينحني فوقها:

ـ لقد تأخرت في العودة إلى المنزل ليلة أمس.

ساد صمت قصير متوتر، ارتجفت ديانا خلاله، لكنها أجبرت نفسها على النظر إليه:

ـ كيف عرفت؟

ـ سمعتك ساعة وصلت.

إذن، لم تكن تتخيل سماع صوت في غرفته... لكن لماذا يجب أن تشعر بالذنب؟ حدقت به متحدية:

ـ حسناً... وماذا في الأمر؟ لست أرى سبباً لتذمرك في وقت أنت المذنب لسوء تصرفاتك.

ـ لو كنا زوجين طبيعيين، أنا موافق معك. ولكننا لسنا هكذا.

ـ لكنك قلت إن الجميع يجب أن يصدقوا هذا.

وجهه الوسيم تحول إلى وجه حقود:

ـ أعتقد أن فرنسوا مسؤول عن هذه العدوانية الجديدة؟ ما كان

يجب أن أتركك معه.

ـ تأخر بك الوقت لتفكر في هذا. أليس كذلك؟

أحست بالسرور لبرودتها. لكنها أفسدت الأمر بأن أضافت:

ـ أظنك تملك جرأة في الانتقاد في وقت ذهبت فيه مع دان.

فرد بحدة:

ـ لكنني عدت إلى المنزل قبلك بساعة.

فذهلت:

ـ صحيح؟

ـ أصبيت دان بصداع.

بطريقة ما... لم تستطع ديانا أن تصدق هذا... لقد عبثت دان مع سيمون بشكل مفضوح، ولا يمكن لصداع أن يحرمها من الوصول إلى هدفها. فضحكت بوقاحة مريرة:

ـ اوه... حسناً... لا يمكنك الفوز بكل شيء... حتى أنا... أعرف هذا!

ـ ماذا تعنين؟

ـ لا يهم.

ـ ديانا... إذا كان هناك امرءٌ أكرهه في الدنيا فهو من يستمر في قول «لا يهم» لي... خاصة عندما لا أعرف ماذا يعني!

غضبه المفاجيء جعلها تتوتر... لا تظنه أبداً يستطيع الكلام مع دان هكذا... وتنهدت... إنه رجل مشغول، لديه الكثير من الأعمال... وبالتأكيد لم ينتظرها هذا الصباح ليقول لها فقط إنها كانت غبية؟ إذا لم يكن مع دان ليلة أمس، فلماذا يسارع للاعتذار عنها؟

أحست بالتعاسة وهي تفكر بما ستخسره. فالنهار طويل أمامها ولا شيء يشغلها سوى التفكير... فقالت متوسلة:

ـ سيمون... ألا يمكن أن تجد لي شيئاً يشغلني؟ إنني ملمة بفن

الطباعة.

فضحك:

ـ أنت لا زلت زوجتي.

ـ وهذا يعني أنه لا يحق لي العمل؟

ـ قطعاً... عزيزتي.

فصاحت:

ـ إذا كنت زوجاً محترماً سيمون، فستجد لي شيئاً أفعله.

ـ لو كنت زوجاً محترماً لوجدت أشياء أخرى أشغلك بها.

ظنته يتحدث عن أعمال خيرية، فصرخت:

ـ كيف؟

وتركز تفكيرها على عمل إنساني، لذلك لم تكن مستعدة له عندما وقف وأوقفها معه، وضمها إليه بسرعة، وقال ساخراً:

ـ تسألين اسئلة شديدة الغباء. سأشغلك هكذا.

ومرر يده تحت ثوبها الحريري وأخذ يداعبها، فسحبت نفسها منه مرتعبة من الرعدة التي أصابتها.

ـ لا!

إنه لا يريدها، بل يريد إثارتها لمعاقبتها... حاولت الخلاص، لكنه أمسك بشعرها، ليرجع رأسها إلى الوراء، وأمسك بجسدها المقاوم ملتصقاً به بوحشية متعمدة. مع ذلك أحست بالأسى على تجاوب جسدها معه.

وأدرك هذا. لأنه نظر إليها وعيناه تلمعان، يقرأ الرغبة التي تصاعدت في عينيها بوضوح. فعيناها صادقتان، لا تستطيع اخفاء مشاعرها. ومرر اصابعه على خدها، ثم على عنقها، وهي تنظر إليه عاجزة... فقال لها هامساً:

ـ ديانا، أنت تجعلين الدم يغلي في عروقي حتى الجنون. تجعليني أريد ما أرفض أن آخذه.

www.elromancia.com

رأسها كان يدور، لكن التفكير السليم كان يقول لها انه انما يسلي نفسه، وان هذا جزءٌ من انتقامه... لكن توهج رغبتها أصمت همس تعقلها المحذر. وأطبقت عينيها المثقلتين، وارتفع رأسها إليه، ورفعت ذراعيها حول عنقه، لتمرر اصابعها باشتياق عبر شعره الأسود وتتعلق به بالحاح بعد ضياعها في جنون الرغبة. سمعته يهمس:

ـ ديانا... أتعرفين ما أنت فاعلة؟

لكن ما تبقى من التعقل كان يصيح بها أن تعتدل... فتراجعت قليلاً عنه وبقيت اصابعه تشد على خصرها ترفض أن تتركها... كانا لا يزالان قريبين من بعضهما لدرجة أنها شاهدت بوضوح الخطوط حول فمه، والرموش السوداء الكثيفة التي تخفي عينيه الزرقاوين... فلم تستطع سوى أن تغمض عينيها... وتحس بالدوار.

تلاشت أنفاسها وهي تحس به يحملها... لكن في تلك اللحظة دخلت السيدة دوريه... حدقت بهما مذهولة... لكن دون حرج.

الحب أمر لا تجهله، ولو أنها ارتبكت، فلأنها غير معتادة على وجود سيمون في المنزل في مثل هذه الساعة، ولا هي معتادة على رؤيته يغازل زوجته. واحمّر وجه ديانا والمرأة تسألهما إذا كانا سمعا صوت الهاتف... ثم أكملت:

ـ الآنسة واتيني تود الحديث معك مسيو. هل أقول لها إنك مشغول؟

ـ لا... لا حاجة لهذا.

وذهب ليرد، دافعاً ديانا عنه بوحشية تقريباً، قبل أن يتجاوز السيدة دوريه.

السيدة دوريه لم تكن مصدومة لمنظر ثوب نوم ديانا المشعث. بل قالت ببرود وهي تمد يدها إلى إبريق القهوة:

ـ زوجي الراحل كان يقول إن الصباح أفضل وقت للحب.

عضت ديانا شفتها وبدأت بيد مرتجفة تصلح هندامها... فصبت

السيدة القهوة وأضافت:

ـ لست أدري لماذا رمقني السيد بهذه النظرة القاتلة... إنه يعرف موعد وصولي كل يوم في هذا الوقت. ومن واجبي الرد على الهاتف، إذا كان غيري مشغولاً.

دهشت ديانا من نفسها وهي ترد بحزم:

ـ لن نتكلم عن هذا الأمر. لو سمحت.

فتنهدت المدام ثم هزت كتفيها... كيف يمكن لها ولسيمون أن لا يسمعا رنين الهاتف؟ أحست أنها لا زالت ترتجف، لا زالت تحس بجسده القوي يضغط عليها. لماذا يعذبها هكذا؟ لا بد أنه يعرف كم هي ضعيفة، ومع ذلك يصر على إثارة مشاعرها وهو لا ينوي أن يرضيها.

ماذا كان سيفعل لو لم تدخل السيدة دوريه؟ على الأرجح كان سيأخذها إلى غرفة نومها، يرميها فوق السرير ثم يضحك منها. السرعة التي ذهب بها ليرد على دان تؤكد ظنها. فلن يخاطر مطلقاً في إفساد فرصة مع دان.

بدأت مدام دوريه تغني لنفسها وتحضر القهوة الطازجة. ثم، وهما تشربانها سمعتا سيمون يغادر الشقة. فنظرت مدام دوريه إلى وجه ديانا التعيس، وبدأت الحديث عن شيء آخر.

بقية اليوم مرَّ دون أن يحدث شيء يذكر سوى وصول رسالة من السيدة واتيني. أحست ديانا بالامتنان لأي شيء يبعد تفكيرها عن سيمون، ولو لبضع دقائق. كانت قد كتبت للسيدة واتيني بعد عودتها مباشرة إلى الدار البيضاء. وعبرت في رسالتها عن حزنها لموت جيري، وأخبرت السيدة بايجاز عن زواجها بسيمون.

وتأخرت السيدة واتيني في الرد. لغاية اللحظة كانت رسالتها موجزة حيث كتبت على نفس السطر تقريباً شارحة أن موت جيري

كان صدمة لها وتمنت أن لا يكون زواجها مخيباً للأمل. وأضافت أنها ترحب بديانا في أية ساعة أرادت استعادة وظيفتها عندها. وأنهت الرسالة بأن دان، ابنتها، في الدار البيضاء... وأنها لم تعرف بعد ماذا ستفعل بخصوص الأعمال.

لم تستطع ديانا فهم شيء من الرسالة، لأن بعض العبارات كانت غامضة فقد بدا فيها شيء يثير العطف... فموت جيري لا بد وأنه حطم حياة السيدة واتيني، أدركت هذا أم لم تزل في غفلة من أمرها لكن ديانا تعرف أنها لن تستطيع العودة إلى العمل لديها. فسيكون هذا مؤلماً، لأنها استغلتها، ربما دون قصد، لينتهي بها الأمر متزوجة من رجل يكرهها، لذا لا يمكن لديانا أن تثق بها بعد الآن. ثم إنها عندما تبتعد عن سيمون، ستبتعد عن أي شيء يمكن أن يذكرها به.

كان الليل قد تجاوز منتصفه عندما أدركت عودة سيمون، مع أنها قررت التظاهر بالنوم، فهو لم يكن يتفقد غرفتها مطلقاً. في الصباح التالي، استيقظت باكراً، لكنه كان قد خرج، وامتد يوم آخر أمامها بشكل مخيف. إذا لم تحصل على شيء تفعله قريباً... فربما ستجن!

أحست أنها أكثر من سعيدة، عندما اتصل بها فرنسوا. سألها عن حالها، وما إذا كانت ترغب في تناول الغداء معه... فترددت، أفكارها اتجهت أولاً نحو سيمون... ثم أدركت أنه لن يهتم بما تفعل طالما تكتمت، فوافقت. فرنسوا يعلم أن سيمون لا يحبها، مما يجعلها تحس أنها لن تندم لخروجها مع صديق.

عادة، لم تكن لتهتم كثيراً. لكن كرامتها دفعتها لتبذل جهداً خاصاً لتبدو في أفضل حالاتها. سيمون تعشى بالأمس مع دان، دون شك. ثم أمضى بضع ساعات معها، ولا يمكن له أن يعترض على تناول زوجته ومدير مكتبه وجبة بريئة معاً.

أخذها فرنسوا إلى مطعم فاخر في المدينة. بدا واضحاً أنه

الأفضل. وسرها أنها بذلت جهدها لتبدو جذابة. وكأنما لم يستطع فرنسوا منع نفسه، فأمسك بيدها يقبلها، وقال لها إنها تبدو فاتنة. وهو ينحني على يدها، أخذ تفكر كم هو لطيف لبق معها. وتساءلت لماذا لم يتزوج بعد؟ لقد قال لها سيمون إنه أعزب.

قبل أن يغادرا المطعم سألها إذا كانت توافق على مشاركته العشاء في يوم آخر من الأسبوع. وتعجبت من نفسها عندما وافقت. مع أنها لم تكن تنوي الخروج معه بانتظام... ربما مرتين يكفي... فقد أحست أنه منجذب إليها، وهذا ما أقلقها.

وهما يستعدان للخروج، وفرنسوا يتمنى سراً لو أن لديهما فرصة لقضاء اليوم كله معاً، رفعت ديانا نظرها لتجد سيمون أمامها ودان واتيني تتعلق بذراعه. أجفلت وأحست بالدم يرتفع إلى وجهها. لكنها ارتاحت عندما ابتسم سيمون، ولو ببرود:

ـ انستطيع الانضمام إليكما؟

ولم يبدو على دان الاستحسان. وتمتمت ديانا تحس بعينيه تحرقانها:

ـ كنا على وشك الذهاب...

فرد سيمون دون اكتراث:

ـ اوه... هذا مؤسف جداً... في مرة قادمة ربما... فرنسوا؟

احنى رأسه ببرود وأمسك ذراع دان بشكل حميم، وابتعد بها. تاركاً ديانا تحدق بهما تعيسة مشوشة.

●●●

٩ ـ ذو القناع المتوحش

في بحر الأسابيع القليلة التي تلت خرجت ديانا مرتين للغداء مع فرنسوا كوتيه ومثلها للعشاء... ولمصلحته تمنعت عدة مرات عن الخروج معه... فهو كان يرغب في أخذها إلى أي مكان وكل يوم، لكنها كانت تعرف أنها لن تستطيع مطلقاً التجاوب مع مشاعره التي بدأ يبديها نحوها. مع ذلك فقد وجدت صعوبة في رفض دعواته، خاصة وأن سيمون كان مستمراً في لقاء دان واتيني أكثر فأكثر.

كانت قد أدركت أن فشل زواجهما أصبح أمراً معروفاً، مع أن الناس لا زالوا يتقبلونها على أنها زوجة سيمون. التقت بالكثير من اصدقائه. العديد منهم دعوهما على العشاء وأبدوا اللطف لها. وسألها سيمون ولأول مرة إذا كان بإمكانه رد ضيافتهم، كما أنها أقامت سهرة في منزلها كانت ناجحة جداً. فلطالما أقامت السيدة واتيني حفلات عشاء عمل ودربتها جيداً على كيفية التصرف فيها. ولأول مرة أحست بالسعادة عندما لاحظت نظرة الاعجاب في عيني سيمون وهو يدرك أنها قادرة تماماً على استقبال ضيوفه وتسليتهم.

لكنها لم تجرؤ على الطلب منه عدم دعوة دان واتيني، فبقيت متخوفة من اللحظة التي ستضطر فيها لاستقبالها. ولدهشتها لم تظهر دان. ارتاحت ولم تسأل سيمون عن السبب، بل تظاهرت بأنه قد لا يكون دعاها، وهي تعلم أن أمراً آخر منعها من الحضور.

سرعان ما حصلت ديانا على دعوات كثيرة لا تستطيع الوفاء بها

كلها. لكنها أدركت كذلك أن معظم هذه الدعوات كانت نهارية... ربما مرة أو مرتين في الأسبوع كانت تتعشى برفقة سيمون مع اصدقائه، إذ يبدو أن الجميع كان يعرف أنه مشغول في الأمسيات الأخرى.

مع ذلك، فمن دواعي سرورها أن تعلم بأنها قد نجحت في ترك أثر في الدائرة المناسبة لحياة سيمون. معظم تلك الدائرة كانت من جنسيات مختلفة، إضافة إلى المراكشيين... وأسعدها أكثر أنها أصبحت معروفة والناس تسعى لصداقتها. ولو أنها كانت ترغب في استبدال كل شيء وأي إنسان، بخيمة في الصحراء لتكون وحدها مع حب سيمون. إلا أنها كانت تتحلى بشجاعة منعت أي إنسان من أن يعرف هذا ما عدا فرنسوا.

في ليلة، وبعد أن خرجت مع فرنسوا لم تتمكن من النوم. فلأول مرة منذ معرفتهما حدثها جاداً... موضحاً الأشياء التي أحبت أن تدعي أنها غير موجودة، وبكلمات واضحة.

تناولا العشاء في ناد ليلي حيث الأنوار خافتة حميمة، مع أنها لم تكن حميمة جداً لبقية الموجودين، ومعظمهم أحبة، لكنها كانت حميمة خطيرة لمن في وضع فرنسوا وديانا.

وعلمت ديانا أن قلقها كان له ما يبرره حال أن تكلم:

ـ لقد وقعت في حبك ديانا! أعرف أن هذا دون جدوى، فأنت تحبين سيمون.

لا فائدة من الانكار، وردت بوجه مكتئب:

ـ أجل.

ـ اوه... يا عزيزتي!

ـ لا... فرنسوا... لا فائدة من الكلام في الموضوع.

ـ لكنني أريد المساعدة... ديانا، عزيزتي، أنت جميلة بما يكفي لتسحري أي رجل. ومع ذلك فهو يتجاهلك.

- فرنسوا!

- لكن هذا صحيح ديانا... ولست أدري لماذا يفعل هذا.

فتوسلت إليه وقد أحست بالقلق فجأة:

- أرجوك فرنسوا!

مع ذلك لم تستطع سوى التفكير كم هو محق. سيمون فعلاً يتجاهلها، وهي تتوق إلى أكثر من بضع كلمات مهذبة. وتنهد فرنسوا:

- لا بأس عليك يا صغيرتي... ربما ستتمكنين من إخباري بالأمر فيما بعد... ويوماً ما قد تصبحين حرة.

فردّت بدون إحساس:

- ربما.

متسائلة في سرها متى ستصل إلى ذلك اليوم. وتابع فرنسوا:

- ألا يحدثك بالأمر مطلقاً؟ أنا أعمل معه، وله أفضل دماغ تجاري في البلاد. وهو يجهد نفسه في العمل دون انقطاع... ولأجل هذا أنا معجب به... لكن معاملته لك تثير احتقاري له. فهو لا يريدك، و يتركك وشأنك. كيف حدث وتزوجتما؟

هذا ما وعدت سيمون أن لا تعترف به. حتى من غير الوعد من المؤلم جداً لها أن تفسر الحدث بالكلمات. وبسرعة، وجهها ابيض من الشحوب، وقفت على قدميها، متوسلة لفرنسوا أن يعيدها إلى المنزل، غير مصغية إلى توسلاته بأن السهرة لا زالت في أولها.

صحيح أن الليل كان في بدايته لكنها لم تستطع أن تهدأ ولا أن تنام. ما قاله فرنسوا حرك فيها الألم، لكنه ألم اعتادت عليه... إذن ما الأمر؟ لقد قلقت عندما صارحها فرنسوا بحبه، مع أنها كانت تشك في هذا منذ زمن. إلا أن فكرة الارتباط به، بعد الطلاق، لم تشعرها بالرهبة، فهو طيب ولطيف، وقد ينفصل في عمله عن سيمون.

لا... لا يمكن أن يكون سبب قلقها هو فرنسوا. مع تنهيدة

ذهبت إلى المطبخ لتصنع شراباً ساخناً، أخذته معها إلى فراشها.

رائحة بخار الشراب الساخن داعبت أنفها وهي تضع الكوب قربها على طاولة السرير، قبل أن تبحث عن كتاب لتقرأه.

النور الناعم للمصباح اضاء لها الصفحات، مع ذلك فقد بقيت الكلمات تتلاشى أمامها بفعل موجات من التعاسة كانت تجرفها... أين هو سيمون الآن؟ ماذا يفعل؟ هل هو في فراش دان؟ أيضع أساساً للمستقبل معها، مستقبل لا وجود لها فيه؟

لم تسمع سيمون يعود. له اسلوبه الهادىء في دخول الشقة، فهي لم تذكر مطلقاً أنها سمعته مرة يدخل. بما أن الوقت كان منتصف الليل، فقد دهشت لسماعها أنه يتحرك في غرفته. يبدو أنه يقوم بعمل ما. أصوات أبواب تقفل، صوت شيء يتحرك لم تتعرف عليه، مياه تجري...

أخذت نفساً عميقاً، متمنية أن يخلد إلى فراشه. كيف يفترض أن ينام غيره وهو يثير كل هذا الضجيج؟ تصورته يخلع ثيابه، يستحم، يلف منشفة حول خصره... وتنفست نفساً عميقاً اخر... أنهته هذه المرة بصرخة احتجاج... يا للسماء... لماذا لا تستطيع نسيان أمره!

أغمضت عينيها، ثم فتحتهما واسعتين عندما انفتح باب غرفتها ودخل عليها... فلم تحاول توبيخه، كما كانت تفعل عندما يدخل دون قرع للباب... حتى أنها لم تفكر بالأمر. على عكس ما توقعت بدا لها أنه كان في الفراش منذ مدة، وشعر لحيته ينمو منذ يوم كامل، وشعر رأسه أشعث فقد نعومته العادية. وبكل تأكيد لم يكن يبدو كرجل كان يمرح في الخارج مع حبيبته.

لم تتكلم ديانا، وبعد نظرتها الأولى المجفلة إليه، رفضت أن ترفع عينيها إليه... ولدهشتها اقترب رأساً إلى الفراش وأخذ الكتاب من يدها، والتوت شفتاه وكأنه يشك في نفسه:

- ديانا... أود التحدث إليك.

- إذا أحببت.

لم تكن تنوي ابداء عدم الاكتراث هكذا... لكن من يظن نفسه؟ يدخل عليها، يطلب اهتمامها، بينما هي بالكاد رأته منذ أيام؟ ولاحظت أن عضلات فكه توترت:

- لن أقبل بأن تكلمني زوجتي هكذا!

- لو أنني زوجتك حقاً...

وسكتت... لا فائدة من هذا الكلام معه. إنه متعجرف وله طريقة خاصة للانتقام. والأفضل لها أن تصغي إليه صامتة. عندما صمتت ابتسم:

- إذن كل ما علي فعله لأكسب احترامك هو أن أعاملك كزوجة؟ اتذكرك يا عزيزتي كعذراء مضطربة... لكنك لست هكذا الآن! أعرف أنك تتجاوبين معي يا حبيبتي... ولا فائدة من الإنكار.

اعتلى اللون القرمزي وجهها، وشدت قبضتيها حتى غرزت أظافرها في راحة يديها... وتوسلت إليه بصوت منخفض:

- أرجوك... بماذا تريد أن تتحدث معي؟

فقطب وكأنه نسي... ثم قال:

- آه... أجل... أود الحديث عن فرنسوا. أنت ترينه كثيراً ديانا.

فصاحت:

- لا ضرر من هذا.

ثم أحست برأسها ينخفض كالمذنبة. فاستراحت نظرته على شكلها المدافع عن نفسها:

- اتساءل! يبدو أنه يخرج معك بما يكفي. مع ذلك لا يبدو عليك أنك تتناولين ذلك الطعام الفاخر الذي يكلفه باهظاً.

- لو أكلت كثيراً لأصبحت سمينة.

- أشك في أن تصبحي سمينة يوماً. كما لا أحب أن تظهري وكأن الريح قادرة على حملك. ديانا! أريدك أن تعديني أن لا تري فرنسوا لفترة.

وتنهد... فقالت بخشونة:

- أنت قلق عليّ أم عليه؟

- إنه رجل طبيعي ديانا... في العمل لامع الذكاء ولا يقدّر بثمن بالنسبة لي. لكنه يخسر بسرعة قدرته على التركيز... وأمامنا عدة صفقات هامة، وأنا بحاجة إليه.

أمامنا... أيعني نفسه ودان واتيني؟ ألم مرير دفع بها لأن تصرخ برعونة:

- ربما لو أسرعت في الطلاق، استطيع الزواج منه، عندها سيصبح على ما يرام.

استقام سيمون في وقفته ببطء، وضاقت عيناه، ثم قال بخشونة:

- ديانا... توقفي عن المزاح.

المزاح؟ يا إلهي! ماذا يتوقع؟ أليس لديه فكرة عن ما يفعل بها؟ ألا يحس بالمرض الذي أصابها به، أو بحاجتها لحبه الذي تتوق له وينكره عليها؟ ألا يحس كم هي مشتاقة إليه، وهو واقف أمامها يبخس قدر ما بينهما بكلماته الرخيصة دون تفكير؟ وتأوهت بصوت مرتفع، وقد أحست بألم حاد يعصر قلبها:

- أيجب أن أعتبر هذا مزاحاً في وقت تقضي فيه كل وقتك مع الآنسة واتيني؟... إذا رغبت في رؤية فرنسوا... سأفعل!

رد عليها بوحشية:

- أنت لا تحبينه ديانا... فلماذا تدمرين حياة رجل آخر؟

بدا الغضب عليه، وخافت منه، لكن كان عليها أن تسأل:

- والآخر هو أنت، أليس كذلك؟

مرر اصابع نافذة الصبر بشعره:

www.elromancia.com

- يا إلهي! كيف تقلبين معاني الكلمات! أحاول أن أعطيك نصيحة، لصالح الجميع... وعلى ماذا أحصل؟

فجأة دون مقدمات انفجرت بالبكاء. تفجرت دموع يائسة حاولت اخفاءها، وبأعصاب محطمة أحست بالضياع، وبالارهاق العاطفي... مع أن آخر شيء ترغب فيه هو أن تنهار أمامه... العذاب كان يمزقها إرباً، وأرادت أن تكون لوحدها. فقالت منتحبة تدفن وجهها بين يديها:

- أرجوك... أرجوك ابتعد عني!

رؤية دموعها هزته وتصلبت عضلات فكه، فتقدم منها ليضمها بين ذراعيه ويقول بصوت أجش:

- ديانا! لا تبكي... أتحمل أي شيء آخر. لكنني لا أتحمل دموعك. بالتأكيد لم يصبح فرنسوا يعني لك كل هذا؟

- لا...

كانت على وشك الاعتراف بأنه هو المهم، لكنها توقفت... فالاعتراف سيحرجها، مع ذلك لم تستطع ابعاده عنها، فذراعاه تبعثان الراحة في نفسها، كم اشتاقت إليهما... اشتاقت إلى الراحة والحب... لكن إذا لم تستطع الحصول على الحب، فلتقنع الآن بالراحة.

كانت صغيرة جداً بين ذراعيه، ولدقائق حضنها، وتركها تبكي، دون أن يسألها ماذا كانت ستقول. ونسيت ديانا أمر فرنسوا، ولم تعد تعي سوى أنها مع سيمون... بين ذراعيه يكفي طموحاتها الآنية، مع أنها تعلم أن كل ما يشعر به نحوها هو الشفقة.

تبللت كتفه بدموعها. استطاعت أن تحس بعضلاته ساخنة مبللة، فشهقت:

- أنا آسفة!

حاولت استعادة تماسكها، مع استمرار كراهيتها للابتعاد عنه.

ستحصل عليه دان واتيني لسنوات طويلة، أيضن على زوجته ببضع دقائق هانئة؟

تعالى صدره بتنهيدة عميقة:

- ديانا...؟

أراح ثقلها عن كتفه قليلاً، ورفع وجهها ليراه بوضوح أكثر:

- هل أنت تعيسة إلى هذا الحد؟

فهزت رأسها كالطفلة... وقالت كاذبة:

- النساء يبكين لأسباب تافهة.

- بطريقة ما، أحس أن مشكلتك أكبر من هذا. ربما ساعدك الحديث عنها... أيكون السبب أنني تزوجتك ثم هجرتك؟

رجل كسيمون وحده يمكن أن يكون صريحاً جداً. بالرغم من دموعها شق الاحمرار طريقه إلى وجنتيها الشاحبتين. خافت من أن يعرف بحبها له، رضيت بأن يعرف نصف الحقيقة، والتي قد تبدو أكثر قناعة من الكذب. فتمتمت:

- ربما... بطريقة ما... إنه أمر لا أفهمه حقاً.

فابتسم، ودفعت اصابعه خصلة من الشعر الذهبي عن جبهتها الساخنة. حركته كانت حذرة، يعني بها المواساة، وأحنى فمه بحنان إلى جبينها الناعم:

- ليس لديك الخبرة الكافية لتفهمي حبيبتي. لكنني لا أريد أن يكون فرنسوا هو من ينير لك الطريق. فليس لديه الحس المرهف ليحبك كما يجب أن تُحبي ولا العمق الذي قد يرضي طبيعتك العاطفية. أنت ساحرة ديانا. وستصبحين أكثر سحراً.

كلماته طعنتها كالخنجر، فارتجفت. كم أن له الجرأة، ليذكرها بهذا، وهو بالكاد يحن عليها بنظرة عطف. صحيح أن لفرنسوا عيوبه، لكنه ليس منافقاً... وقالت:

- فرنسوا لطيف. وأنت لا تريدني سيمون.

www.elromancia.com

جمد للحظات ثم ضحك بنعومة. واشتدت قبضته عليها بعد أن أحس بأنها جفلت لتبتعد عنه. وربما أثارته حركة جسدها المقاوم. أو أنه الغضب الذي سبب له احمرار وجهه.

ـ أنا قادر على الرغبة بك. فالمرأة الجميلة تدفع أي رجل إلى الجنون... خاصة امرأة يحتضنها هكذا... لا يجب أن تستخفي بجاذبيتك مطلقاً يا حبيبتي.

أهذا ما تفعله؟ وتدفق الدم حاراً في عروقها... أحست بالرعب لتجاوبها. لكنها لا تعرف مطلقاً كيف تتعامل مع مشاعرها وكيف تكبحها... إنها تتوق للبقاء بين ذراعيه، وأن تتوسل إليه أن لا يتركها... لكن هذا أمر خطير. فلو أظهرت مشاعرها سيكون هو المنتصر في النهاية دون أن يمس له طرف. وهي من ستبقى غارقة في بحر مشاعر هائجة... وفي حال من التعاسة اسوأ من ذي قبل.

مع ذلك فقد فات الأوان. بينما كان فكرها يجول بخوف... كان جسدها يتجاوب محموماً. ودون وعي امتدت ذراعاها إلى كتفيه العريضين، وبدأت تتعلق به، ترفع يدها لتلامس ذقنه، شعره... أطراف اصابعها انزلقت إلى تحت، تتحسس فمه، ترتجف من الشوق. وسمعته يقول بصوت اجش وهو يطفىء النور:

ـ لا تخافي حبيبتي... لن استعجلك... سترين أنني لطيف...

وأخذ فمه يهبط من رأسها، إلى أذنها، إلى عنقها، بينما هي مسترخية بين ذراعيه تهتز عجزاً... وبنفس سريع، فضح ضعف مقاومتها، اشتدت قبضة يدها على مؤخرة عنقه وأدارت وجهها لتلتقي بوجهه:

ـ سيمون حبيبي...!

لم يعد أمامها أي وقت للتساؤل ما إذا كان هذا هو صوتها الذي يتوسل، فقد سقطت، في لجة، جرفتها إلى محيط واسع من الجنون والاستسلام.

في العاشرة والنصف من الصباح التالي، اتصل بها فرنسوا، فأيقظها من نوم عميق، وقبل أن تستفيق تماماً مدت يدها إلى الهاتف، فسمعت صوته يداعبها:

ـ ألا زلت في الفراش؟

صوت حركاتها المضطربة فوق السرير بلغه عبر الهاتف فسألها:

ـ حبيبتي... أأنت بخير؟

ـ أجل.

ـ ردك جاف... ماذ يجري هذا الصباح يا صغيرتي؟ لقد وصل سيمون وكأنه مجرم. واضطررت للابتعاد عن طريقه، لكن كان هناك غيري لم يحالفهم الحظ.

ـ ماذا تريد فرنسوا؟

ـ ماذا...؟ آه... أجل... أتودين الغداء معي؟

ولأنها الطريقة الوحيدة للخلاص من الحاحه وافقت، فسمى لها مطعماً، وأغلقت السماعة.

جلست تحدق بالسماعة لدقيقة كاملة، ثم جرت نفسها إلى الحمام، وإلى تحت الدوش... إذن سيمون يتملكه الغضب؟ كم كانت غبية في أملها أن يحس بشكل مختلف نحوها هذا الصباح. وتدفقت مياه الدوش على جسدها بقوة، لتنساب على بشرتها حيث لا زالت تحس بلمساته... لا تذكر أنها نامت، أو أنه ترك الفراش. لكن عندما تركه لا بد أنه كان يلعن الشياطين التي دفعته إلى أحضانها.

نسيت أن سيمون طلب منها أن لا ترى فرنسوا. لكنها الآن تعتقد أن هذا أفضل ما تفعله... فمزاج سيمون، كما وصفه فرنسوا، يبرهن على مدى ندمه لقضائه الليل مع زوجته... ولا بد أنه سيرتاح لو عرف أنها ليست في البيت تنتظره ليقترب منها ثانية. مسكين سيمون، فكرت بمرارة وحكمة، أنضجتها ليلة واحدة، أنه لن يكون

www.elromancia.com

أول رجل يصادف ظروفاً لا يستطيع السيطرة عليها. وعليها أن تفهمه أن لزوجته الكرامة الكافية كي لا تذكره بما حدث.

وكانت في حيرة من أمرها. هناك صوت خافت يهمس لها أنه قد وجد الاكتفاء بين ذراعيها، وصوت آخر صرخ بحزم أن في أفكارها الكثير من التفاؤل لكن من المؤكد أنه الآن يعصره الندم. وإلا لأيقظها قبل أن يغادر إلى مكتبه، ولو ليطمئن عليها؟ لا... بكل بساطة هي قد أثارت عواطفه، وأي رجل في موقفه لا بد وأن يثار، مع قليل من الدموع، وذراعين متعلقتين به... أما بالنسبة لها فالأمر مختلف. إنها تحبه. والحب كان وراء التجاوب المشبوه الذي أثاره فيها. لكنه لن يصدق إلا أنها تعمدت الايقاع به.

خرجت من تحت الدوش متنهدة وعلى وشك البكاء، ومدت يدها إلى المنشفة. وبعناية نشفت نفسها، ثم ارتدت ثيابها، واختارت ثوباً مدروساً للمناسبة، يعطيها بعض الشجاعة... لزمها الكثير من الماكياج لتخفي الظلال السوداء حول عينيها، لكنها خففت من أحمر الشفاه... وبما أن السيدة دوريه غائبة هذا الصباح... لم يكن هناك من تخبره بخروجها. في الردهة، وجدت مذكرة من سيمون. قال فيها إنه آسف لكنه لن يأتي للعشاء، فلديه موعد للعشاء مع صديق... لكن هذا الصديق، كما تعرف ديانا، سيكون دان واتيني.

كانت الساعة تقارب الواحدة ظهرا عندما التقت بفرنسوا... وتناولا الغداء معاً، لكنها لم تتمتع به. كان يمكن أن تتمتع لو أنها استطاعت التوقف عن التفكير بسيمون... وبقلق أدركت أنه قد استحوذ على كل حواسها.

حزنها الكئيب فشل حتى في التجاوب مع هذر فرنسوا المرح. لكنه جعلها تنسى الوقت. وبعد الغداء أخذها في نزهة إلى شاطىء «انفه» حيث شربا الشاي بالنعناع في مطعم آخر وشاهدا الأمواج الضخمة تتلاطم على شاطىء الأطلسي. وكانت الساعة تقارب

الخامسة عندما أوصلها فرنسوا إلى الشقة... ولدهشتها وجدت سيمون في المنزل.

طوال النهار كانت تحس بالبؤس لأنها لن تراه، بعد أن قرأت مذكرته. ووجدت نفسها الآن تتمنى لو أنه بقي بعيداً. فهي تأمل بفرصة لتستجمع قواها، وهذا أمر لم تتمكن منه وهي مع فرنسوا.

رفعت ذقنها، تحضر نفسها للقائه. وسألها متجهماً إذا كانت قد تمتعت بالغداء. ثم سألها وهو ينظر إلى ساعته:

ـ أين أخذك فرنسوا بعد الغداء؟

ـ إلى الساحل.

ـ كنت انتظرك منذ مدة.

فهمست:

ـ لماذا؟ لقد تركت لي رسالة تقول فيها إنك لن تعود الليلة، وظننتك ستتعشى مع الآنسة واتيني.

فرد بخشونة:

ـ لقد ألغيت هذا... فهناك مكان يجب أن نذهب إليه... أنت وأنا.

ـ إلى أين؟

لاحظت أنه في مزاج غريب، فأحست بالخوف... كان شاحباً، عيناه تلمعان، كأنه يفكر بجريمة. وتذكرت أنه بدا على هذه الصورة صبيحة زواجهما، بعد أن اكتشف أنها ليست الفتاة التي ظن أنه تزوجها. صحيح أنه منزعج لأنها عصت أمره وخرجت مع فرنسوا. لكن هذا لوحده لا يمكن أن يسبب غضباً كهذا. لو أن الأمور كانت مختلفة، لكانت هنا في انتظاره، بين ذراعيه، ومع حنينها لأن تكون هناك، فقد لاحظت أنه ينوي التظاهر بأن ما حدث لم يحدث. فسألته مجدداً:

ـ إلى أين سنذهب؟

- نحن عائدان إلى الصحراء.

- الصحراء؟

رد متجهماً:

- لقد كنت هناك من قبل مدام.

- اوه... سيمون!

أسرعت إليه متهورة، لتضع يدها متوسلة على ذراعه... وبدا لها أمر لا يصدق، بعد تلك الساعات التي قضياها معاً ليلة أمس، أن يتحدثا إلى بعضهما كالغرباء. لكن، ما أن لمسته حتى تراجعت مدركة أن الأمر ليس بهذه السهولة. فهمست:

- أنا آسفة.

فنظر إلى حرجها ببرود:

- الأفضل أن لا تقولي شيئاً تندمين عليه، وأشير إلى الأعمال كما الأقوال. اصدقائي في الصحراء سمعوا عن زواجي. ومن الطبيعي أن يرغبوا في مقابلتك.

لم تستطع جذب عينيها عن عينيه، متسائلة أي نوع من الرجال هذا الذي تزوجته... قد يساعدها كثيراً أن تعرف أنه ينتمي إلى نوع محدد من الأحياء. في الصحراء، حيث عرفته، ناسبه دور رجل من قبائل البربر بسهولة واقناع... هنا، في الدار البيضاء، بدا أكثر اقناعاً بدور رجل الأعمال العالمي الناجح، المنكب على انتزاع أفضل الصفقات من الحياة، خاصة فيما يتعلق بالزواج... إنه محير ومخيف، مع ذلك، أحبته أكثر وأرادته أكثر. وبقلب مركز على هذه الفكرة قالت:

- إذا أخذتني لمقابلتهم، فهل ستتمكن من طلاقي فيما بعد؟

- ليس بسهولة... فأنت تمنعين عني هذا باستخدامك دموعك وتوسلاتك كما فعلت ليلة أمس، أليس كذلك؟ إنها خدعة قديمة، وقعت فيها بكل غباء. لكن إذا كنت مستعدة لتقبل زواج دون حب،

فتحضري لتحمل كامل واجبات الزوجة.

- واجبات يا سيمون؟

- إنها واجبات اجتماعية مدام. يوماً ما قد نستطيع الخلاص من الورطة التي نحن فيها... وحتى ذلك الوقت علينا فعل ما بوسعنا للابقاء على المظاهر.

- فهمت!

وانخفضت عيناها... لم تعد تستطيع النظر إليه، إلى وجهه البارد، إلى القناع المتوحش. وعندما رن جرس الباب، أحست بالراحة. وتحرك لاعناً ليفتح الباب، وزاد هلع ديانا عندما شاهدت دان تخطو إلى الداخل.

توقفت الآنسة واتيني. تنقل نظرها بسرعة من ديانا إلى سيمون. لم يكن وجهها ودوداً وهي تنظر إلى ديانا. لكنه لم يعد كذلك عندما استدارت إلى سيمون. متجاهلة زوجته ركضت إليه ولفت ذراعيها حول خصره، ورفعت نظرها إليه متوسلة:

- أردت الحديث معك سيمون بعدما قلته لي على الغداء... وأظنك لا تمانع في مجيئي إلى هنا.

وضع اصابعه بلطف تحت ذقنها:

- بالطبع لا حبيبتي. الأمر سيان عندي.

فهمست ديانا:

- سيمون!

عند سماعه احتجاجها، رفع رأسه، لكن بدلاً من أن يستجيب لرجائها قال لها بخشونة:

- اصمتي!

أمسك بيد الآنسة واتيني وابتسم لها ثم قال لديانا ببرود:

- يجب أن تعذرينا.

راقبتهما ديانا وهما يتقدمان إلى غرفة الاستقبال ويغلقان الباب

وراءهما. لاحظت أن الباب لم يقفل تماماً، لكنها أحست بالشلل الكامل لتفعل شيئاً حيال هذا. استطاعت سماع صوت سيمون يتحدث بهدوء... لكن صوت الآنسة واتيني ارتفع فجأة وسمعتها ديانا تقول بصوت واضح:

- متى ستقول لها سيمون؟

- لست أدري، لكنني مصمم أن كل شيء انتهى بيننا. وخلال الأيام القادمة سأفكر بمخرج. فلا أريد أن أؤلمها أكثر من الضروري.

خفق قلب ديانا بشدة وألم، وهربت إلى غرفتها. لا شيء له معنى بعد الآن. كل ما هو واضح أن سيمون يقوم بالترتيبات النهائية للخلاص من زواجه. لكن لماذا يتحضر لهذه الرحلة الحمقاء إلى الصحراء؟ إنه يتحدث عن عدم التسبب بالألم لها بنفس الطريقة التي يتحدث فيها عن الخلاص منها. أليس لديه فكرة عن مشاعرها؟ إذا كان يحاول اتمام الانفصال بلطف قدر المستطاع فهذا يُظهر أنه ليس دون أحاسيس... لكن مهما حاول... لن يستطيع التخفيف من الضربة القاصمة.

بعد خروج الآنسة واتيني، جاء يفتش عنها. لم تسأله ماذا كانت تريد دان، وهو لم يعلق على شيء. ولم يتحسن طبعه، لكنها لم تكن تتوقع هذا. ليس بعد أن استرقت السمع إلى حديثهما. قطب جبينه عندما شاهدها تقف قرب طاولة الزينة، وقال:

- حضري ما يلزمنا... كان يجب أن يكون هنا من يساعدك... خادمة مثلاً.

فضحكت محاولة اخفاء خيبتها:

- استطيع تدبير أمري. مع أنني طالما تساءلت لماذا لا يكون لك خدم هنا، كما في القصر.

- الأمر مختلف هنا... ففي شقة عازب لا ضرورة للخدم.

- ربما لا... كم ستغيب سيمون؟

- بضعة أيام... أسبوع ربما.

- هل ستعود إلى هنا؟

رمقها بسرعة:

- أجل... لماذا تسألين؟

وتنفست نفساً عميقاً:

- إذا كنت لا زلت تظن أن من الضروري أخذي لمقابلة... اصدقائك، فعلي أن أعرف ماذا آخذ معي. أول مرة ذهبت فيها إلى الصحراء لم أحمل معي الكثير... أتذكر؟

- هل يجب أن تذكريني بهذا؟

- لا... هل سأحتاج إلى فساتين. أم مجرد بضعة سراويل؟

- سراويل... أجل.

فتح باب الخزانة وبدأ يفتش فيها، رمى إلى الخارج عدة فساتين طويلة، أتبعها باثنين قصيرين. وقال:

- يجب أن تأخذي ثياباً رسمية. سنقضي الليلة في مدينة مراكش، فالوقت أصبح متأخراً للسفر أبعد منها.

أخذتهما سيارة إلى المطار... مطار «النويصر» يبعد حوالي الثلاثين كيلومترا عن المدينة... من هناك طارا إلى مراكش حيث كانت سيارة أخرى في انتظارهما لتنقلهما إلى الفندق. وفكرت ديانا بسخرية أنهما قد يكونان مثل أي زوجين عاديين، فسيمون لم يحدثها منذ انطلاقهما... كان صامتاً في الطائرة، مشغولاً بتفحص أوراق يبدو أنها أوراق عمل. وشغلت نفسها بالنظر حولها، لكن ما كان يشد اهتمامها أكثر كان سيمون وقربه منها.

ظنت أنه سينزل في فندق عادي وسيحجز لهما غرفتين منفصلتين. عندما توقفت السيارة أمام مبنى فاخر، دهشت. عند طاولة الاستقبال بدا لها أنهم يتوقعون وصولهما... وهذا يعني أنه قام بالحجز... ولكن متى؟

ابتسم لمظهرها المندهش:

- كنت واثقاً أنه سيعجبك، إنه أفضل فندق في مراكش، والبعض يقول الأفضل في كل شمالي أفريقيا.

أعجب الفندق ديانا... وللحقيقة كانت ستعجب به أكثر لو أنها كانت تشعر بالسعادة. فبعد حيرتها طوال الطريق حول نوايا سيمون، وصلت إلى استنتاج محير، أنه قد يكون يتلاعب بها وبالآنسة واتيني معاً.

نزلا في جناح كامل. له باب واحد للدخول من الممر الخارجي. لم تكن ديانا قد أقامت بمثل هذا الجناح من قبل. فخامته مبالغ فيها. مرة ثانية بدا أن حيرتها تسلي زوجها.

وأشار إلى إحدى غرف النوم:

- الأفضل أن تأخذي هذه! أعرف أن المرأة تتردد إذا أعطيت الخيار. وأنا جائع لا استطيع الانتظار لتناول العشاء.

- حاضر سيمون.

- الحمام هناك... لن تتأخري في الاستحمام؟

- أعتقد أنك تعرف كيف أن المرأة تتردد في هذا أيضاً؟

نظر إليها مرتاباً بما يعنيه كلامها، لكنها نظرت إلى عينيه الزرقاوين ببراءة وابتسمت ببرود:

- إذا لم تمانع سأغتسل قليلاً واستحم فيما بعد... فأنا أشعر بالجوع كذلك.

- كما تحبين، أمهلك عشر دقائق إذن.

غرفة نومها كانت كمخدع حريم من كتاب ألف ليلة وليلة. أثاثه فاخر ومريح... لكنها لم تسمح لنفسها بأكثر من نظرة سريعة قبل أن تخلع ملابسها بسرعة... وبسرعة أكثر اغتسلت متمنية لو أنها لم تقرر عدم الاستحمام.

بعد عشر دقائق بالضبط... كانت جاهزة.

١٠ - هل تسامحني؟

الثوب الذي ارتدته ديانا، كان بلون بني مذهب بخيوط لماعة. تلك الخياطة الصغيرة الماهرة في الدار البيضاء أصرت على أن طرازه هو آخر صيحات الموضة، كذلك ياقته المفتوحة... لكن ديانا نظرت إلى الياقة بريبة. إنها منخفضة جداً، وأحست أنها ستكون أكثر ارتياحاً بياقة أكثر ارتفاعاً. لكنها كانت تأمل أن سيمون المعتاد على رؤية النساء المتأنقات في مثل هذه الأزياء، لن يلاحظ.

تأبط سيمون ذراعها وهما ينزلان إلى المطعم وفاجأها بقوله ممازحاً:

- تبدين جميلة جداً يا عزيزتي... نبدو زوجين رائعين... ألا تظنين هذا؟

ديانا تعلم أنها ليست طويلة بما يكفي للمقارنة مع طوله وعرض أكتافه، مع ذلك فقد أحست بالسعادة. على الرغم من العدائية بينهما، كان هناك نوع من التوتر جعلها تتوق لبضع كلمات لطيفة.

للمطعم ناد ليلي، وعندما ذكره سيمون خلال العشاء اللذيذ، سألته ديانا إذا كان بالإمكان أن يذهبا إليه لفترة من الوقت... فخامة المكان ولذة الطعام، واهتمام سيمون اللطيف بها، انتزع من نفسها كل تعاستها وارتباكها. وتقهقر الماضي القريب مع المستقبل إلى مؤخرة تفكيرها ليتركا المجال لتوهج سعيد... وبتقدم السهرة أحست كم هي سعيدة متمتعة بنفسها... لكن عندما اقترح سيمون أن يعودا

www.elromancia.com

إلى جناحهما، عاد إليها التوتر.

كان سيمون خلفها تماماً عندما دخلا الجناح... وهو يقفل الباب سألها:

ـ ستذهبين رأساً إلى الفراش ديانا؟

ـ أظن هذا... لقد مر عليّ يوم متعب.

ابتسم متوتراً، فلاحظت أن مرحه قد تلاشى... وقال لها:

ـ أرجو أن لا تكوني قد اتفقت مع فرنسوا على لقاءات مقبلة؟

فضحكت متعمدة. متذكرة قرارها بأن تواجهه:

ـ على الأقل، أنه لن يقتحم علينا الشقة!

ـ تقصدين دان بالطبع؟

ـ أجل.

التمعت عيناه بالغضب، واستدار نحوها:

ـ ديانا...!

فقاطعته:

ـ أرجوك سيمون. لا تقل شيئاً. دعنا لا نفسد ما أظنه أسعد أمسية أمضيناها معاً. تصبح على خير.

في غرفتها، استندت لاهثة على الباب من الداخل... تفكر بخلاصها السهل... قوة شخصيته، عندما يكون غاضباً، تجعلها تحس كالمسحوقة، وهي الآن غير مستعدة لاثارته.

تنهدت بارتياح لأنه لم يلحق بها، خلعت ملابسها، دخلت الحمام، استحمت، لفت على نفسها روب النوم، ثم عادت إلى الغرفة... رائحتها عطرة، شعرها مسترسل لماع نظيف.

قفز قلبها من مكانه لرؤية سيمون متمدداً على الفراش، يستريح فوق كومة من الوسائد... فاشتدت قبضتها توتراً، ووقفت عند الباب:

ـ أتريد شيئاً سيمون؟

فابتسم مداعباً:

ـ أريدك أنت. فهذا الفراش واسع كفراشي... وسأكون مرتاحاً هنا.

وأخذ قلبها يسارع في نبضاته، فصاحت:

ـ لا بد أنك تمزح!

ارتفع حاجباه، وطافت عيناه فيها:

ـ آه... فهمت يا عزيزتي... لا... أنا لا أدعي التمتع باخافتك. أنت زوجتي.

حملقت به ديانا مذهولة، وازداد احمرار وجهها وهي تفكر بما يعنيه... ألم تسمعه يقول للآنسة واتيني انه يريد التخلص منها، لكنه لا يريدها أن تتألم؟ إنه يمارس طريقة غريبة لتنفيذ هذا! ليله أمس حصل الأمر صدفة... أجل... لم يكن مقصوداً... لقد اعترف بنفسه. لكن هنا... في غرفتها... وعن قصد؟ وقالت هامسة:

ـ لست أفهمك.

ـ لا أهتم بما إذا كنت تفهميني أم لا... فأنا أريدك أن...

وتوقف عن الكلام... لكن لا يمكن أن يكون سيتحدث عن الحب... وهز كتفيه:

ـ لا تهتمي!

وبحركة واحدة كان يقف إلى جانبها ليحملها وينظر إلى وجهها:

ـ هل سأبقى أتوسل إليك انماً يا فتاة؟ ألا تحسين برغبة في أن تأتي إلي من تلقاء نفسك؟

قبل أن تجد كلمات ترد بها عليه، كان قد ألقاها فوق السرير، وانحنى فوقها. فحاولت دفعه عنها قائلة:

ـ توقف عن هذا سيمون! ألا تعلم ماذا ستفعل؟

ـ بكل تأكيد حبيبتي. لن أكون رجلاً إذا لم أكن أعرف ماذا سأفعل.

علمت أنها إذا لم تتخلص منه سريعاً فستغلب رغبتها على إرادتها... فقد بدأ جسدها يستجيب بإلحاح، وصاحت:

- حسناً... دعني وشأني... أيها الوحش!

- لا يا جميلتي. لا تنفريني منك... فسأنالك، أعجبك هذا أم لا. ألم تكوني تقومين باغرائي طوال الأمسية؟

- أنت تجعلني بكلامك هذا أكرهك أكثر!

تصلب لبضع لحظات، ثم تنهد بخشونة وضمها إليه. للحظات استلقت هائمة... ثم تعلقت به يائسة... إلى أن دفعت الرغبة جانباً كل تفكير بينهما ما عدا ما هما عليه في تلك اللحظة.

تحركت ديانا عند الفجر لتجد سيمون ينام بهدوء إلى جانبها. حدقت فيه متعجبة... هذه المرة الأولى التي تراه فيها هكذا، وجدته يبدو أصغر سناً. استدارت بسرعة لتتسلل إلى خارج السرير... غطت نفسها بالروب وخرجت إلى الشرفة. الفندق كان قريباً من أسوار المدينة الكبيرة. وقد بدأت خيوط الشمس تضيء ببطء الحديقة، وخلف الأسوار، وبساتين النخيل، والطيور أيضاً بدأت الغناء، أول نغمات هي بمثابة مقدمة لأوركسترا ضخمة. وفي مكان ما من المدينة تعالى صوت المؤذن يدعو إلى الصلاة، ليتردد صدى صوته في الجوار... لم تدر كم مضى عليها هكذا قبل أن تشاهد الشمس تبدو من بعيد من وراء قمم الأطلس تعلو القمم المكللة بالثلج بشعاع ذهبي قرمزي... وبدأت الأصوات تتصاعد من الشوارع.

أحست بشيء وراءها تماماً فاستدارت بسرعة، لكن بعد فوات الأوان... إنه سيمون. يبتسم ساخراً:

- أنت والفجر سبقتماني يا طفلتي.

- لا بد أنني تذكرت كيف استيقظت باكراً في الصحراء.

كانت تحس بالخجل وأخذ اللون الزهري يعبق فوق وجهها،

وابتلعت ريقها بصعوبة. فقال بلهجة من يتسلى:

- إذن أنت تحاولين رؤية عينات من جمال «مراكش»... يجب أن أريك المزيد منها فيما بعد.

- إذا كان لديك الوقت لهذا... كم هي الساعة الآن؟

- الوقت مبكر، مبكر جداً يا حلوتي... عودي معي إلى الفراش.

لم تكن واثقة من أنها ستعترض، فما ارتفع إلى حلقها مات وذراعاه تطبقان عليها بتملك. وبتنهيدة مختنقة، رفعها ليعيدها إلى السرير الواسع المنتظر.

وقت الإفطار، الذي قُدِّم لهما في جناحهما، بدت ديانا شاحبة، وهذا مما لم يسرّ زوجها.

- ليس من المفترض أن تكوني شاحبة يا عزيزتي، فأنت لازلت شابة.

- لا حاجة لك للقلق حول هذا.

- حسناً... ومن يقلق؟ كنت اتساءل فقط لماذا؟ فهل فشلت في إسعادك ليلة أمس حبيبتي؟

كم من السهل كراهيته، لو لم تكن تحبه كثيراً. كيف يمكن له أن يسألها هذا السؤال، بعد أن عايش تجاوبها؟ أحنت رأسها متظاهرة بالتركيز على الطعام... أمسكت قطعة «الكرواسان» ورفعتها، وبدلاً من تضعها في فمها أخذت تنظر إليها مفكرة... كيف يمكن أن تفضي له أنها لم تنس بعد اساءته لها بقوله إنه تزوج من نكرة؟

رفعت رأسها نحوه لتجد تعبير من الحنان على وجهه... لم تذكر أبداً أنها عرفته من قبل، وبدا وجهه رقيقاً. وأنهى ما تبقى من قهوته ليتقدم منها ويضع ذراعه بحنان حولها من الخلف ليشدها إليه ويريح رأسها على كتفه.

- يجب أن أقدم لك أسفي على ما قلته... ربما أنت شاحبة

لأنك لست معتادة علي هذا. ويجب أن ترتاحي قليلاً هذا الصباح فلقد أصبح الوقت ظهراً على كل الأحوال.

واشتدت ذراعاه حولها، لكنها شهقت غاضبة:

ـ أرجوك سيمون... أظن أن هذا تجاوز حده... بإمكانك الآن أن تخرجني لمشاهدة مراكش أو أن نذهب إلى الصحراء. أريد انهاء ما جئنا لأجله والعودة. وهذه المرة أعني العودة إلى انكلترا... فلديّ شيء واحد ثابت: لا أريد العودة إلى أية غرفة نوم معك... مطلقاً!

متأخرة... ندمت على كلامها... مع ذلك، وهو يدفعها بخشونة عنه، لم تجد أية إمكانية لتغيير أفكارها. فلو أنه يريد القليل من التسلية، فلا يجب أن يستمر بالحصول عليها منها وعلى حسابها. وقال متجهماً:

ـ ارتدي ملابسك إذن، سأجول بك في المدينة، هذا إذا كنت تظنين أن بإمكانك التمتع، وفي الغد ستزور الواحة، لكن تذكري: إذا أردت المجيء إلى غرفتك... فسأفعل! أنت زوجتي! وكما قلت لك يا حلوتي، لا أنوي أن أدعك تنسين هذا!

عندما مرت ديانا في المرة الماضية بمراكش، تمنت لو تراها عن كثب... وسيمون كان الدليل الأمثل، بالرغم من أنه دليل دائم العبوس... زارا المساجد العتيقة، والأسواق، والقصور والمقابر الأثرية. دخلا في أزقة بدت لا نهاية لمنعطفاتها وزواياها... تفرجا على الأطلال، الحدائق، واسوار المدينة التي تلفها.

في مطعم فرنسي تناولا الغداء بسرعة... تحدث معها سيمون بأدب، لكن كغريب مرة أخرى. وأحست بقلبها يثقل، وعلمت أنها لن تحس بالسعادة بعد.

عادا ثانية إلى سوق يدعى سوق الجمال حيث وجدت فيه كل شيء من الراقصين إلى ساحري الأفاعي ورواة القصص، وأكوام

التمر، أكياس الحنطة، وأشياء موضوعة في اكياس من الجلد المحاك، قال لها سيمون إنها نوع من السمن الحيواني للطبخ... وجلست النساء على حصر مغطاة بقطع مبهرجة الألوان، سبحات، عقود من الخرز، حلى مزيفة، سلال، ملابس، جلديات...

إحدى النساء البائعات، ابتسمت لديانا وهي تقف لتبدي اعجابها بخيط مليء بالخرز الملون الجميل:

ـ مرحبا.

وأعلمها سيمون أن هذه الكلمة تعني الترحاب بالانكليزية. وبعد قليل من المساومة اشترى لها عقداً خرزياً ملوناً وضعه في عنقها وفمه يلتوي سخرية. لكنها قالت له بحياء:

ـ شكراً لك... لقد كان يوماً رائعاً يا سيمون.

ـ أنا سعيد لتمتعك به.

أمسك بذراعها ليقودها عائدين إلى الشوارع العريضة، حيث نادى سيارة أخذتهما إلى الفندق.

مساءً، بعد العشاء استدعي إلى الهاتف. عندما عاد قال لها إن زميلاً له في التجارة لديه مشاكل، وانه اتفق معه على رؤيته بعد ظهر اليوم التالي. وهذا يعني أنهما سيبقيان في مراكش يوماً آخر. لكن بما أنه حرٌ في الصباح فسيأخذها لمشاهدة الريف.

تلك الليلة، وعلى الرغم من تهديداته، لم يدخل إلى غرفتها... فاستلقت مستيقظة في الفراش العريض، تحس بأنها تفتقده.

استأجر سيمون في الصباح التالي سيارة يقودها بنفسه. حيث قرر أن يأخذها إلى وادٍ قال إنه يذكره بسويسرا... الطريق كان سهلاً وسريعاً، لكنه خفف من سرعة السيارة لتتمكن ديانا من مشاهدة القرى على الأطلس الأعلى، والتي وجدتها مثيرة للاهتمام.

تناولا الغداء في مطعم في بلدة «اوريغان» في موقع جبلي أخضر. قال بعدها سيمون إن عليهما العودة كي لا يفوته موعده.

في طريق العودة، قاد سيمون السيارة بروية وخبرة. لكنه بقي صامتاً يركز اهتمامه على الطريق. وجلست بقربه هادئة، لكن ما أن اقتربا من أسوار المدينة حتى فعلت شيئاً لم تكن تتصور أن تفعل مثله.

كنت تتأمل أسوار المدينة، عندما شاهدت رجلاً ضخماً يضرب ولداً صغيراً نحيلاً، بعصاً غليظة... فجأة ودون انذار، مدت يدها لتمسك بذراع سيمون صائحة:

ـ اوه... سيمون انظر!

في تلك اللحظة كان سيمون قد أزاح يده الأخرى عن المقود، فانحرفت السيارة فوراً عن الطريق. بعد هذا بقيت ديانا دائماً ترتجف عندما تتذكر حماقتها... فقد خرجت السيارة من فوق سطح الطريق الصلبة، والاطارات تصدر صريراً كالصراخ، متوالفة مع صياح سيمون التحذيري الوحشي في أذنيها، وبدأت الأشياء تدور من حولها. وكأنها تعيش كابوساً من الأولاد والعصي والرجال الضخام. أسوار المدينة، ووجه سيمون المفزوع والتراب الصخري، ثم صراخ الناس. لم يعد أي شيء واضح أمامها حتى لحظة أدركت أنها تركع إلى جانب سيمون الفاقد الوعي تصرخ بجنون مرات ومرات:

ـ حبيبي... اوه... حبيبي!

وبدا لها أنها ارتمت بعيداً عن السيارة بينما علق سيمون تحت السيارة المنقلبة، حيث سارع إلى نجدته سائق سيارة مارة، تبين فيما بعد أنه أحد أشهر الجراحين في البلاد، وهو صديق لسيمون، واستدعى العرفان بالجميل من ديانا عندما أعلن أن سيمون ليس مصاباً بشكل سيء...

وسألها الرجل الذي قدم نفسه باسم باتريك مازارو:

ـ هل هو زوجك؟ ليس لدي فكرة أنه تزوج!

أخذ سيمون إلى المستشفى، لكن بعد الفحوصات وصور الأشعة

سمح له بالخروج بعد ظهر اليوم التالي، بعد أن مرت ديانا بأسوأ أربع وعشرين ساعة في حياتها.

أحست بأنها يجب أن تعاقب على ما فعلت، لكن بدلاً من هذا كان الجميع لطيفاً معها... في المستشفى، حيث انتزعوها عن سيمون لفحصه، حاولت التماسك والاتصال بالفندق، لتروي للمدير ما حدث وترجوه حجز الجناح اسبوعاً آخر. بعد أن أكد لها الأطباء، أنه بحاجة للراحة والهدوء لعدة أيام. بعدها أجريت لها فحوصات، هز الطبيب رأسه خلالها، وأعطيت سريراً لترتاح فيه. وعندما سألت الطبيب عن حالتها، ابتسم ورد أن ما بها لا يدعو للقلق.

لدهشتها وتوترها بقيت معها ممرضة حتى الصباح وعندما استيقظت، شعرت بأنها أفضل حالاً... بعد الإفطار سألت عن سيمون وعلمت أنه سيخرج بعد الظهر، فغادرت المستشفى إلى الفندق حيث استحمت وغيرت ثيابها، وجلست تنتظر وصوله.

عندما وصل، وسمعت صوته في الممر عرفته على الفور، ودخل الجناح لوحده وأغلق الباب وراءه. رفعت ديانا رأسها ببطء، عيناها مليئتان بالحيرة... كان لا يزال رأسه ملفوفاً بالرباطات مما ذكرها بالكوفية التي كان يرتديها في الصحراء. فوقفت تنظر إليه، تحس أنها على وشك الاغماء من الخوف... وكانت تعلم أنها تستحق أي شيء سيقوله لها. فسارعت لتقول له:

ـ أنا آسفة على غباوتي يا سيمون.

التوتر الذي في داخلها كان يزداد طوال الصباح وأحست أنها لو لم تتكلم فستصرخ كالمجنونة... وقد لا يكون لديه أية فكرة عما عانته عندما ظنت نفسها قد تسببت بمقتله. وكانت لا تزال تعاني الصدمة... وإذا لم يكلمها فسيعني هذا ازدياد قوة كراهيته لها... فتمتمت ببؤس:

ـ أنا... لا أعتقد... أنك ستسامحني.

لكنه صعقها ذهولاً بابدائه الارتياح الكامل ثم جلس دون تردد وقال بخفة:

ـ لكنني سأسامحك بكل تأكيد... لو تحضرين لي شيئاً أشربه، فلا زلت أحس بالدوار يا عزيزتي.

سارعت لتفعل ما طلبه، وأحست بنوع مجنون من الفرح لأنه لم يكن غاضباً منها. وقالت:

ـ ظننتك قد ترغب في قتلي.

ـ أجل... حسناً... لقد أحسست أنني على وشك قتلك عندما امسكت بيدي، لكن من أنا لأتذمر وقد تخلصت من الأسوأ.

ـ اوه... سيمون...!

ـ اظن انني كنت أفضل أن أصبح مقعداً عاجزاً يا جميلتي مما كان سيجبرك على البقاء إلى جانبي ما تبقى من حياتك.

ـ لكنك تعلم أنك لن تتحمل هذا. اوه... سيمون... لقد قلقت عليك كثيراً! كيف تشعر حقاً؟

ـ بخير... ما عدا هذا الشق الذي في رأسي... وأنت حبيبتي؟

ـ أنا...؟ اوه أنا بخير... معدتي تؤلمني قليلاً، لكن ربما لأنني كنت متوترة لأجلك... وسأكون على ما يرام الآن.

ـ كم أتمنى هذا... يا إلهي، تلك المخاطرة التي قمت بها!

ـ إنها بسبب ذلك الولد المسكين يا سيمون! كان هناك رجل يضربه بقسوة بعصاً غليظة.

ـ لكن هذا أمر عادي هنا كما أخشى.

فتراجعت مذعورة:

ـ حسنا... يجب أن تتوقف هذه العادة!

ـ اوه... ديانا! في انكلترا رأيت أناساً يفعلون ما هو اسوأ لأولادهم... في قلوب الكثير من الناس نوعاً من القساوة، لا يمكن التخلص منها بسهولة. ولا أقول إنها مبررة طبعاً.

ـ أظنك على حق... الرجل الذي أنقذك من السيارة قال إنه يعرفك.

ـ أجل إنه صديق قديم... جاء لرؤيتي هذا الصباح قبل أن أغادر المستشفى. وهو وزوجته مقيمان في مراكش، ويريدنا أن نتعشى معهما في أمسية قادمة.

ـ لقد بدا لطيفاً وسيعجبني أن نتعشى معه.

ـ وهل سيعجبك هذا حقاً؟

أحست بالدموع تحرق محجريها وتكاد تندفع إلى الخارج... إنهما يتبادلان الحديث كغريبين، وهذا أمر لن تحتمله وسمعته يقول بصوت منخفض ناعم:

ـ ديانا... أود التحدث معك.

فاطرقت رأسها، لكنها سرعان ما لاحظت شحوبه فصاحت برعب وقد نسيت الدموع التي في عينيها:

ـ اوه... سيمون، أتظن أن هذا أمر جيد؟ أعني أنك خرجت لتوك من المستشفى... وإذا كان من الممكن الانتظار...

بابتسامة مبهمة مد يده ليمسك بيدها وقال:

ـ أخشى أن لا استطيع الانتظار... حبيبتي. قبل أن تطبق عليّ ظلمة الجحيم بالأمس... أذكر أنني سمعت من كان يصرخ يناديني «يا حبيبي» ويكرر النداء مرات ومرات.

أغمضت ديانا عينيها بسرعة، تصلي لتحافظ على جأشها:

ـ كنت خائفة جداً... بالطبع.

ـ ألن تنكري هذا؟

فهزت رأسها صامتة.

ـ أعرف أن الانكليزيات تستخدمن هذه الكلمة دون قيود يا ديانا. لكنني لم اسمعها منك من قبل.

فأحست بموجة غيرة يائسة:

ـ سمعتها فقط... من فتيات أخريات؟

أجاب، يغمز بعينيه، في وجه تمرد لامع في عينيها:

ـ القليل. منهن لم تكن تعني لي شيئاً... لكنني لا أصدق مطلقاً أنك أنت قد تتفوهين بها إلا إذا كنت تحبين الرجل... عزيزتي؟

بيأس، ولعلمها أن وقت الانكار فات، أطرقت بنظرها تحدق بالسجادة الشرقية الرائعة التي تغطي الأرض:

ـ ربما... لا.

سمعت تنهيدته العميقة... وجعلتها يده تتقدم نحوه. عيناه اللتان حدقتا بها كانتا تلمعان بالانتصار.

ـ ربما لا؟ أهذا أفضل ما عندك؟ أتعرفين أنني كدت أفقد عقلي بسبب قلقي عليك؟ وأنني هذا الصباح رفضت البقاء في المستشفى، فحاجتي إلى احتوائك بين ذراعي كانت أقوى من أن أتجاهلها... عندما ظننت أننا معاً سنلاقي حتفنا، ولم نحل بعد أي شيء عالق بيننا... اوه... يا إلهي يا حبيبتي... أدركت عندها أن هناك المزيد من الأغبياء في العالم، لا يمكن تجاهلهم!

ـ أتعني... أنك... تحبني؟

وفغرت فمها ذهولاً. ورفعت رأسها لتحدق به، لكنها أحست بأنفاسها تتقطع بانطباق ذراعيه حولها وشدها إلى صدره إلى أن أحست بأن الغرفة تميل بها. وسمعته يكرر بخشونة كم يحبها وأحست بشفتيه تجولان على وجهها، ويديه تداعبان جسدها... فأحست بالإثارة بسرعة وهو يضمها بوحشية. وكأنه ينوي أن لا يتركها أبداً، وتجاوبت معه، بعد أن أحست أن كيانها يذوب. لكنها فجأة أحست أن هذا لا يكفي فصاحت:

ـ لا... سيمون... انتظر!

صحيح أنها تحبه، لكن يجب أن تكون الأمور سوية بينهما. لقد قال إنه يحبها... لكن هل حبه قوي لدرجة التخلص من شعوره

باحتقارها كونها يتيمة مفلسة ومن رغبته بالطلاق منها؟ وقالت شاهقة:

ـ أنت محق... يجب أن نتحدث! فأنت لم تخبرني بعد بكل ما يجب أن أعرفه...

فارتفع حاجباه سخرية:

ـ ظننت نفسي قد عبرت عن نفسي جيداً.

سحبت نفساً عميقاً وأكملت:

ـ قلت إنك تحبني. لكن منذ زواجنا كل ما كنت تأمله هو الطلاق!

ـ لم أعد هكذا عزيزتي. فأنا لم أعد أفكر بالطلاق منذ مدة. منذ أن عدت إلى عقلي وعلمت كم أحبك!

ـ لكنك كنت دائماً تعبر لي عن مدى كراهيتك.

ـ ليست كراهية... في الواقع أشك في أنني كرهت أي إنسان مطلقاً. لكن ربما كرهت تلك الضربة الموجعة لكرامتي، عندما هربت خطيبتي مع رجل آخر. والضربة الأسوأ كانت عندما اكتشفت أنني تزوجت بالفتاة الخطأ... لكنك أثرت فيّ مشاعر مختلفة.

استدار حول الغرفة ببطء ثم عاد إليها:

ـ عندما يقترب عازب من منتصف الثلاثينات يا ديانا، يصل أحياناً إلى قناعة بأنه من الأفضل له أن يتزوج وينجب وريثاً. الفتاة التي اخترتها كانت فرنسية، أرملة ثرية من الطبقة الارستقراطية، دون أولاد. عرفنا بعضنا لسنوات وبدت لي مثالية. ثم التقت بجيري واتيني... ولأنني لم أكن أشعر نحوها بشيء، أهملتها. ووضعت أعمالي في الدرجة الأولى وغالباً ما تركتها وحيدة. وهكذا أحبت جيري وهربت معه. وعندما وصلت قررت وأنا معتقد أنك شقيقته، أن أجعلك تعانين قليلاً، ولهذا كان سفرنا إلى الصحراء.

ـ ألم تشك أبداً أنني لست من ظننت؟

فابتسم:

ـ بكل تأكيد أصبحت أعرف الفرق الآن... لكنك لم تنكري، وكنت تشبهينها... إلا أنها لم تكن تملك براءتك أبداً... عند وصولك إلى القصر كنت متمسكاً بعجرفتي وكبريائي، فلم ألاحظ بوضوح.

ـ هل أحببت الآنسة واتيني؟ لطالما ألمحت أنك أحببتها.

فهز رأسه:

ـ لا... لقد كنت صغيراً سريع التأثر، وصدتني بخشونة... ثم وجدتها مع رجال آخرين.

ـ مع ذلك تزوجتها أو ظننت أنك تزوجتها. وعندما أحضر لك فرنسوا الخبر إلى الواحة، كنت تظنني هي، مع أنني حاولت أن أشرح لك.

مرر سيمون اصابعه في شعرها وشد رأسها إلى كتفه:

ـ أعلم... كنت منشغلاً في اقناع نفسي أنني بزواجي منك سأحقق الانتقام الأمثل وأحصل على حماة ثرية... قومي في الصحراء فقراء. والمال هذا كان سيساعدهم في كثير من المشاريع... لكن هذا ليس عذراً لأن تعاني أنت مما فعلته بك.

الآن لم يعد هذا مهماً، لكنها سألته بفضول:

ـ لو كنت شقيقة جيري، أكنت تظن أن زواجنا سينجح؟

ـ كنت سأتأكد من نجاحه... ووجدت نفسي منجذباً إليك، بطريقة لا أذكر أنني مررت بها من قبل. وجدت نفسي غير قادر على البقاء بعيداً عنك.

ـ عندها اكتشفت الحقيقة...

فتنهد:

ـ أجل... وليس عندك فكرة عن مدى الغضب الذي تملكني... ففي غضون أيام قليلة خدعت للمرة الثانية... ويا إلهي

كم كنت غبياً! صحيح أنني لم أكن لطيفاً معك يا صغيرتي، لكنني وجدت الجنة بين ذراعيك ليلة عرسنا. إلا أن الكبرياء منعني من الاعتراف بأي شيء قد يمنعني من التخلص منك... فالأمر كان اسوأ بكثير عندما اكتشفت أنني أحبك... وأخيراً عرفت أنه لا جدوى من مقاومتك... فقدري محتم يا حبي. فصممت على إصلاح كل شيء قبل أن أخبرك بكل هذا... لكن حصلت بعض التعقيدات.

ـ لكنك يومها تركت لي مذكرة تقول إنك ستتعشى خارجاً؟

ـ كان هذا غباء مني. لكنني كنت أتوقع أن استغرق في العمل. وهذا ما كان يجب أن يحدث، لكنني فجأة لم استطع تحمل بعادك، فقررت العودة لآخذك إلى الصحراء... حيث كنت أمل هناك أن تكتشفي حبي لك.

ـ سيمون... هل قلت يوماً للآنسة واتيني إنك ستتخلص مني؟

ـ لا... أبداً... قلت هذا لك ولم أقله لها. ومرت بي أوقات كدت أجن فيها غيرة من فرنسوا وتلفظت بعبارات بهدف إيلامك فقط.

ـ لكنني سمعتك تقول لها في غرفة الاستقبال، وكان الباب غير مقفل، إنك صممت على انهاء الأمر بيننا، لكنك لا تريد جرح مشاعري أكثر من الضرورة.

فتنهد:

ـ اوه... ديانا... حبيبتي... كان يمكنني أن أجنبك هذا الألم! كنت أتحدث عن السيدة واتيني... أمها... فأنا سأترك إدارة شركتها. لدي الكثير من الالتزامات... وستتولى الدولة إدارة الشركة، ولن تخسر كثيراً. وكنت أقصد أنني أريد تسهيل الأمور لها قدر المستطاع. ودان عائدة إليها لتبقى معها دائماً، وهذا قد يساعدها.

أحست ديانا بالدموع تلامس عينيها ثانية:

ـ اوه سيمون... كم أنا مسرورة. صحيح أن السيدة واتيني طلبت مني عدم الاحتجاج كثيراً إذا ظنتني ابنتها، لكنني أشك في أنها كانت تتصور أن يصل الوضع إلى ما وصل إليه... لطالما كانت لطيفة معي... أنا اليتيمة المسكينة...

وابتسمت ابتسامة ممازحة صغيرة، فتأوه من جديد:

ـ إذن، لن تسمحي لي أن أنسى أنني دعوتك هكذا... صحيح؟ يا إلهي...! كيف تلفظت بهذه الكلمات، وقد أحببتك كثيراً؟... لست أدري.

ـ وأنت تفعل الكثير للأيتام... لقد أخبرني فرنسوا الكثير عن الوقت والجهد والمال الذي تخصصه لهم.

فصاح بها:

ـ لا تذكري اسم ذلك الرجل أمامي. لا زلت أرى الطريقة التي كان ينظر بها إليك.

وكأنه يعاقبها شد بذراعيه على خصرها حتى أحست بجسدها ينبض بالشوق إليه... بعد دقائق سألها:

ـ ديانا أتحبينني لدرجة أن تسامحيني وتعيشي هنا معي؟ يجب أن تكوني مستعدة لحياة الصحراء والمدن معاً. أريدك أن تحملي أطفالي. أن تكوني معي أينما سافرت. لكن أكثر من أي شيء آخر... أريدك أن تحبيني.

حاولت تهدئة ضربات قلبها المتسارعة، وقالت:

ـ اوه... لكنني أحبك... أحبك!

ثم أجفلت عندما وضع يده فجأة على رأسه... وصاحت متوترة:

ـ سيمون؟ يجب أن تستلقي في الفراش!

فابتسم ساخراً، ثم حملها بين ذراعيه:

ـ كنت أحاول منع الرباط من الانزلاق فوق عينيّ يا حبيبتي...

لكنك محقة حول الفراش... فأنت تحسين بما أحس به، ولا استطيع التفكير بمكان أفضل لنا.

خبأت وجهها المحمّر في كتفه العريض، ولم تكن مستعدة هذه المرة للجدال... إنها لا تزال لا تصدق أنه يهتم بها، يريدها، لكنه يفعل، وهذا أمر مذهل. وهمست وهو ينفذ وعيده بأخذها فوراً إلى الفراش في غرفة النوم:

ـ أحبك... حبيبي!

فابتسم بلطف وصفق الباب بعنف وراءه.

● ● ●

www.elromancia.com